

أزهار عباد الشمس العمياء

أكتوبر 2013

رواية

397

تأليف: ألبرتو ميندیس

ترجمة: عبداللطيف البازي

مراجعة: د. فهد المطيري



أزهار عباد الشمس العمياء

رواية

تـــألـــيـــف: ألبرتو مينديس

تـــرجـــمـــة: عبداللطيف البازي

مـــراجـــعـــة: د. فهد المطيري

• أزهار عباد الشمس العمياء
رواية

العنوان الأصلي:

(Los girasoles ciegos)

By: Alberto Méndez

Editorial Anagrama, Barcelona, 2004

حقوق الملكية العربية لهذا الكتاب لدار نشر:

سعد الورزازي للنشر

Saad Warzazi Editions

Rue Tahar Sebti, résidence Taoufik,appt.18.Rabat

Courrier électronique: editionswarzazi. driss@yahoo.fr

Tél: 0664775780

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2013م

إبداعات عالمية - العدد 397

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

الفهرس

إهداء المؤلف

إلى ذكرى لوكاس بورتيا

إلى شيما وخوان بورتيا

اللذين يعرفان معنى الغياب

أصوات الذاكرة
(تقديم الترجمة العربية)

إن الكشف عن خطايا الماضي ونواقصه، والابتعاد عن الأحكام القطعية والنهائية، والتحلي بقدر لا بأس به من الشجاعة والحكمة، قد تشكل بعض المداخل الممكنة لإنصاف نساء ورجال قتلوا أو هجروا أو حرموا من الحرية لأنهم جاهروا، في ظروف صعبة واستثنائية، بقناعاتهم وبمناهضتهم للظلم والاستبداد والفاشية. وقد تشكل الكتابة الإبداعية إحدى الوسائط الفعالة للتطهر من الألم ومضاعفاته ولترميم الذاكرة الجماعية.

الذاكرة والألم: موضوعان مركزيان في «أزهار عباد الشمس العمياء»، رواية ألبرتو منديس (Alberto Mendez) الوحيدة التي طبع منها تسع طبعات بين يناير ٢٠٠٤ وديسمبر ٢٠٠٥، والتي رحل كاتبها قبل أن يعيش مجده الأدبي، وهو الذي دافع دوما عن التواضع وعما يعادله من تقشف إبداعي، ودافع عن ضرورة كتابة ما هو جوهري فقط.

أربعة فصول وأربع هزائم: جندي من أتباع فرانكو أعلن استسلامه في ظروف يصعب فهمها، وشاعر لجأ رفقة زوجته الحامل إلى ربوة قريبة من السماء لأن قصائده تزعج، وسجين جمهوري يجد نفسه في مواجهة والدي مجرم حرب، وراهب مفتون بسحر امرأة يسكن زوجها دولابا لأن أفكاره لا تروق للعسكر. هي حكايات متداخلة ومأهولة بعدة شخصيات

تواجه، في معركة غير متكافئة، كما كان حال شخصية الدون كيخوطي، طواحين هواء ممثلة في عسف آلة جهنمية وظالمة. وينتقل بعض هذه الشخصيات من حكاية إلى أخرى لنكتشف أن الهزيمة، في نسخها المتعددة، هي ما يبقى، وأنها أيضا وحدة للتأريخ ولقياس زمن مضطرب وعاصف.

وتضيء الرواية بشكل باهر مرحلة قاتمة من تاريخ إسبانيا، بأهوالها وفظاعاتها، بدناءة البعض، ورفعة البعض الأخلاقية، وتتداخل الوقائع والتفاصيل لتقدم لنا معرفة رفيعة عن الحرب الأهلية في أبعادها الإنسانية وفي تأثيرها على المصائر الفردية، ولتنبهنا إلى أن الجحيم قد يكون هو إمكانية أن نتذكر كل شيء، وأن الحب يظل في جميع السياقات بمنزلة سند يمنحنا عنفوانا نحتاجه دوما على الرغم من كل الفجائع والخرائب، مما يجعل هذه الأسئلة المتناسلة تفرض نفسها: لماذا وقع ما وقع؟ وهل يمكن ألا يقع من جديد؟ وهل القارئ نفسه سيشعر بالانهزام، أم أنه سيبحث عن دواعي أمل مرغوب فيه؟ هي مرحلة فضل المجتمع الإسباني لمدة طويلة ألا يتأملها أو يسائلها، والحديث هنا هو عن الحرب الأهلية المذكورة وعن مرحلة الاستبداد الفرانكاوي كذلك، لذا ساد ما يشبه البياض وتشنجت الذاكرة الجمعية، وتوافق الإسبان، مع بداية فترة انتقالهم الديموقراطي، على طي الصفحة من دون قراءتها بشكل كامل.

وتحتفي «أزهار عباد الشمس العمياء» بالتفاصيل البسيطة لتتخلص من ثقل موضوع حارق، وهي تستند

أحيانا على صمت صاخب يعكس الانفعالات العميقة والعنيفة للشخصيات وصراعها المرير مع ماضيها وتجاربها التي تحكي عنها بلوعة ورغبة أكيدة في الإيصال والاقتسام. وتتذكر هذه الشخصيات أحداثا نجد أنفسنا معنيين ببعضها، إذ نقرأ كيف تدخل بعض المغاربة الذين جندهم فرانكو، وكان يرأسهم ماريشال يدعى أمزيان، في تلك الحرب الأهلية، ونقرأ كذلك كيف أن بعض الإسبان كانوا يهاجرون سرا وبحرا، لدواع سياسية، إلى شواطئنا.

وعلى الرغم من الأجواء القاتمة التي تهيمن على الرواية، فهناك احتفاء بالإبداع والمبدعين، وهنالك شاعر ينشد أشعارا بين الرصاص، ومترجم لا يغادر منزله، بل حتى جندي فاشي يقضي وقته برسم أعلام ملونة، بالإضافة إلى الإشارة أو الاستشهاد بموزارت وساليري وبالشعراء رامون إي كاخال و ماتشادو ولوركا وبـ «ألف ليلة وليلة». مبدعون يضيئون ليل الهزيمة وإبداعات تؤكد أن جوهر الإنسان يتمنع على الاستسلام.

«أزهار عباد الشمس العمياء» رواية سعدت بترجمتها وآمل أن تستمتعوا بقراءتها.

عبداللطيف البازي

«يقتضي التجاوز تحمل المسؤولية، لا طي الصفحة أو اللجوء إلى النسيان. وفي حالة وقوع مأساة، فإنه يتطلب بالضرورة إقامة الحداد الذي هو منفصل بشكل كامل عما إذا كانت هنالك مصالحة أو عفو أم لا. في إسبانيا، لم تتم عملية الحداد التي تعني، ضمن أشياء أخرى، الاعتراف العلني بأن هنالك أمرا ما ذا طابع مأساوي، وأنه - على الخصوص - عصي على الجبر. على النقيض من ذلك، و في إطار الأجواء العادية نسبيا التي تم إقرارها، يتم الاحتفاء المرة تلو الأخرى بعدم القدرة على الحسم بين اعتبار عنصر ما مادة محسوبة على التاريخ، وبين اعتبار أن عنصرا آخر ليس بعد كذلك، وبشكل من الأشكال وبصيغة جازمة، يتم الخلط بين الحياة وغيابها. إن الحداد ليس حتى مسألة ذكرى: فهو لا يحيل على اللحظة التي يتذكر فيها أحد ميتا، ذكرى قد تكون أليمة أو متضمنة لبعض العزاء، لكنه يحيل على تلك اللحظة التي يتبين فيها أن غياب ما هو غياب نهائي. الحداد هو أن نجعل الفراغ ضمن ممتلكاتنا».

كارلوس بييرا (Carlos Piera)
في تقديمه لكتاب توماس صيكوفيا (Tomás Segovia)
«في عيني النهار» (مختارات شعرية)

الهزيمة الأولى: ١٩٣٩
أو لو كان القلب يفكر لتوقف عن الخفقان

الآن نعرف أن القبطان أليغريا اختار أن يموت بشكل اعتباطي، من دون أن ينظر ناحية الوجه المغتاظ للمستقبل والذي يترصد مصائر تم التخطيط لها بشكل معكوس. اختار أن يموت من دون عواطف متأججة ومن دون كبير استعداد للتأثر، ومن دون أن يعلي من صوته بعد أن اجتاز ساحة المعركة، وبعد أن رفع يديه ما يكفي لكي لا يبدو متوسلا إزاء عدو مرتاب، ولكي يصرخ المرة تلو الأخرى «أنا مستسلم!».

تحت هواء معتدل وشفاف مثل عطر، كان الليل يرخي ستاره على مدريد في صمت ذي حنين لا يقطعه سوى الانفجار المنطفئ للقذائف التي تسقط فوق المدينة بإيقاع طقس ديني، لا بوتيرة حربية. «أنا مستسلم». نسجل أنه خلال ليلتين أو ثلاث ليال كان القبطان أليغريا يدافع عن هذه اللحظة. من المحتمل أنه رفض أن يقول «أنا أستسلم»؛ لأن هذه الجملة كانت ستحيل على شيء متجمد في لحظة، في حين أن الحقيقة هي أنه كان قد شرع في الاستسلام بشكل تدريجي. في البداية استسلم، وبعد ذلك قدم نفسه للعدو. ولما أتيحت له فرصة الحديث عما وقع، قدم تعريفا

لما قام به على أنه «نصر معكوس». «على الرغم من أن كل الحروب يكون ثمنها الأموات، فإننا منذ مدة بتنا نصارع بفعل العادة. علينا أن نختار بين أن ننتصر في حرب أو أن نغزو مقبرة»، تلك خلاصة ضمنها رسالة له كتبها إلى خطيبته إنيس في يناير ١٩٣٨. الآن نعرف أنه، من دون أن يكون واعيا بذلك، رفض مسبقا الاختيارين معا.

والآن، إذ نعرف ما نعرف عن كارلوس أليغريا، نستطيع أن نؤكد أنه خلال الانتقال بين الخندقين، ما وصل إلى سمعه لم يكن سوى ضجيج رعبه. كل الصخب، جميع الانفجارات، كل الصرخات، امتصها صمت الليل. وكانت مدريد في عمق الصورة مثل خشبة مسرح، تلطخ الهواء الفاتر بخيالات مدينة مطفأة، كان القمر يرسمها رغما عنه. كانت مدريد بصدد البحث عن مخبأ.

هكذا بدأت هزيمة القبطان أليغريا. خلال ثلاث سنوات طوال، كان يراقب ذلك العدو المعطوب الذي تربطه به قرابة، والمضطر لقبول أن يباغت جيش آخر، هو جيشه، هذه المدينة الجامدة والصامتة التي رسمت حدودها بالمصادفة خلف متاريس ما كان أحد ينتظر منذ مدة أن تكون منطلق أي هجوم.

«امتزج العنف بالألم، الغيظ بالضعف، لتكون النتيجة، مع مرور الوقت، دينا شعاره البقاء على قيد الحياة ، مع شعائر انتظارات يترنم فيها بالترتيل نفسه من يقتل ومن يموت، الضحية وجلادها، فاللغة الوحيدة المستعملة الآن هي لغة السيف وكلام الجرح». ذلك ما كتبه أليغريا لأستاذه في مادة

القانـون الطبيعـي بمدينـة سـلامنكا، قبـل استسـلامه للعـدو بشهرين.

ثـلاث سـنوات تفرغ فيها لتدبيـر التموينات بدقة وبوسـواس مسـاح الأراضي وعدم تساهل الابن الوحيد، حتى لا يتسلم أحد قذيفـة مـن دون الإذن الـلازم، وحتـى يتوصل الجميـع بما يلزم مـن الطعـام ليتفرغوا لمواصلة الحرب. كانت أيضا ثلاث سـنوات تفحـص فيها الهزيمة بمنظاريـن يميلان إلى الخضرة قام مركز التموينات بتوزيعهما على إستراتيجيي الحرب، وعلى ملاحظي المعـارك، وعلى من يثير الموت فضولهم. والفظاعات التي لم تتح له فرصة أن يراها كان هناك من حكي له عنها.

مـن مخبئـه، كان يتابـع العدو، كان يـراه مقبـلا ومدبرا، من المكتـب إلـى الجبهـة، مـن الجبهة إلى الورشـة، مـن الجيش إلى الأسـرة، ومن الرتابة إلى المـوت. في البداية اعتقد أنه جيش من دون أن تكـون لـه روح جيـش ولـذا تعـين أن يهزم. بمـرور الوقت، وصـل إلـى خلاصة - عكسـها هكذا في رسـائله - تقـول إنه كان جيشـا مدنيا، «وهو ما يـرادف أن يعيش طائر تحت الأرض أو أن يكون وحش ذا سمات ملائكية». وفي النهاية، اقتناعه بأن أولئك الرجـال يحاربـون كمن يسـاعد جـارا على رعايـة قريب مريض، وبأنهـم ولـدوا ليهزموا حـول أولئـك الجنود إلى جـرد للجثث. تحسب الهزيمة دوما على من يدفن أكبر عدد من الأموات.

المـرة الأولـى التي واجه فيهـا القبطان أليغريـا الخطر كانت بالتحديـد يوم ابتـدأت هذه القصة. لم يكن قـراره هو الالتحاق بالعدو، بل أن يستسـلم، أن يسلم نفسه بصفته سجينا. إن هاريا

مـن الجيـش هو عـدو لم يعـد كذلـك، ومن استسـلم فهـو عدو مهـزوم، لكنـه يظل عـدوا. لقد ألح أليفريا علـى ذلك عدة مرات عندما اتهم بالخيانة. ولكن ذلك حدث فيما بعد.

في بوح لم يتم تقديره جيدا، واستعمله أياما بعد ذلك المدعي العسـكري ليطالب بإعدامه بشـكل مهين، أسـر أليفريا لضابط صـف بـأن المدافعين عن الجمهورية كان بإمكانهـم أن يذلوا أكثر جيش فرانكو لو أنهم استسـلموا في اليوم الأول من الحرب بدلا مـن المقاومـة بشراسـة، لأن كل مـن مـات في هذه الحـرب، مهما كانت الجهة التي ينتمي إليها، قد تم توظيفه لتمجيد من يقوم بالقتـل. مـن دون أموات، قـال، لن يكون هنالك مجـد، ومن دون مجد سنكون فقط إزاء مهزومين.

وعلـى الرغـم من أنه التحق بالجيش الثائـر في يونيو ١٩٣٦، فإنـه واجـه في البداية تردد رؤسائه الذين لـم يتعرفوا في ذلك الملازم المؤقـت على سـمات محـارب، فعينوه في آخـر المطاف في إدارة الإمـداد والتمويـن ، حيـث سـتكون له، بالنظـر إلى نزاهته وتكوينه، فائدة أكبر مما لو كان في ساحة المعركة. غير أننا نعلم، وفـق التعليقات التي كان يخص بها زملاءه، أن تعبا دفينا ومرور الموتى حولاه، وفق تعبيره نفسـه، إلى حي رتيب. وعلى الرغم من ذلك، وفي أواخر سنة ١٩٣٨، تمت ترقيته إلى رتبة قبطان لمجازاته على حماسه.

أنا مستسلم.

مـن المحتمـل أن عامـل المطبعـة المسـلح ببندقية الـذي أزاح أخشـاب الحاجـز ليتكفل بقبطـان من الجيش الثائـر لن يعرف

أبدا أنه بهذا الشكل ابتدأت فوضى أخرى لها ارتباط جزئي فقط بهذه الحرب.

لا أحد أطلق النار. لما وصل قرب خندق جمهوري، سدد عدة رجال بلباس مدني نحوه أسلحتهم وهددوه وهم خائفون. واستجابة منه إلى أحد الأوامر، قفز إلى داخل الخندق، وفي الظلمة جرده أحدهم من المسدس الذي كان يحمله في حزامه. لم يبد أية مقاومة. كان السلاح نظيفا ولامعا ومحشوا إذ لم يستعمل من قبل. أن يتخلى عن سلاحه كان يعني بالنسبة إلى القبطان أليغريا مخالفته للتعليمات. كان بصدد إعلان استسلامه، هذا صحيح، ولكن دون تقديمه لأدنى تنازل.

لم يكن له أي ملمح متوحش أو عسكري، كان يبدو بالأحرى مثل مساعد موثق متنكر في زي جندي: وجه مدور ومكوم حول نظارتين هما أيضا مدورتين يتوج جسما لولا القبعة النحاسية لبدا ضئيلا. وجميع الشهادات التي استقيناها تتحدث عن أنفة ما على الرغم من انصياعه لجميع الأوامر التي تلقاها كأنه كان ينتظرها في اللحظة نفسها التي وجهت إليه فيها.

في البداية كان راكعا، واليدان قابضتان على الرقبة، بعد ذلك كان رأسه إلى أسفل، واليدان قابضتان على الرقبة، ثم كان عليه أن يسير واليدان قابضتان على الرقبة ويعبر متاهة من المتاريس حيث كان هناك رجال في حالة رثة يحرسون أفقا مظلما وغير مرئي، وفي الأخير، واليدان قابضتان على الرقبة، وصل إلى مساحة فارغة في غابة أشجار كثيفة، وهناك على ضوء قنديل غاز تأمله طويلا من الأعلى إلى الأسفل قبطان كان يرتدي

معطف قطيفة. كل الأوامر تمت وشوشتها له من طرف من احتجزوه، غير أن ذلك العسكري المكتوف الأيدي الذي كان في مواجهته لم يجد أدنى تحفظ في أن يسأله ببذاءة وهو يصرخ ويسأله عما كان يفعله هناك.

أجاب أليغريا بنبرة مغايرة لنبرة السؤال:

- لجنة الدفاع عن مدريد ستستسلم غدا أو بعد غد.

- أهذا سبب استسلامك؟ لا تستخف بي.

- هذا هو السبب.

تشتت الحديث في وشوشات وجمل همس بها أولئك الجنود غير المرتدين لباسا عسكريا، وكانت تصله فقط نظرات محملة بفضول وابتسامات متفهمة. لقد حسبوه مجنونا.

كان بوده أن يفسر لماذا ترك الجيش الذي كان سيربح الحرب، ولماذا استسلم لمجموعة من المهزومين، ولماذا لم يرغب في أن يشكل جزءا من النصر. غير أن فظاظة هؤلاء الرجال جعلته يتراجع مقررا من جديد أن يلتزم الصمت.

كيف يمكن لحياة هؤلاء الرجال البؤساء أن تكتسي قيمة وتكون هي ما يتعين تسديده مقابل حرب؟ أتراهم ما كانوا يعرفون أن الموت يتهددهم؟ أتراهم كانوا يجهلون أن الانضباط الصارم سيجر معه أولئك الذين كانوا يقاومون؟

بعد اجتياز غابة الصنوبر لا ديهيسا دي لافيلا، تم اقتياده راجلا حتى شارع فرانكوس رودريغيز، حيث أوقفوا شاحنة صغيرة كانت عائدة من توزيع المؤونة بالجبهة الشمالية - الشرقية لمدريد. كانت الساعة حوالي الثالثة صباحا. أجلسوه على

طرود لم تتم تغطيتها، وتحت حراسة رجلين مسلحين شرعوا في المسير. لقد أصبح أسيرا.

وفي نقطة تقاطع شارعي برافو موريو وألفاردو، أوقفت إحدى المجموعات الشاحنة الصغيرة. كان معهم رجل جريح تم إركابه وتم تعديل جلسته إلى جانب القبطان أليغريا. كان كتفه الأيمن ممزقا بفعل رصاصة، ولم يفد العلاج المستعجل الذي قدم له في إيقاف الدم النازف عبر ضمادة. كان يشتكي بصمت كأنه يريد ألا يزعج أحدا أو يرغب في المرور من دون أن يثير الانتباه. وقد أخبرنا أن السجين حاول مساعدته لإيقاف نزيف جرحه.

لما رأى الجريح أليغريا سأل:

- وهذا؟ ما الذي يفعله ههنا؟

أجاب أحد الجنود:

- إنه هارب من الجيش.

صحح أليغريا:

- أنا مستسلم.

اقترح الجريح بنبرة قاطعة:

- أطلق عليه رصاصة.

فسر أليغريا:

- غدا أو بعد غد سيعلن سيخيسموندو كاسادو استسلامه.

- هكذا. ولهذا استسلمت. كف عن إزعاجي.

توقفت الشاحنة الصغيرة عند الوصول إلى المستشفى الكبير الموجود بشارع كواترو كامينوس. ساعد جنديان، بلباس رسمي هذه المرة، الجريح على النزول. ولما رأى أحدهما عن قرب بذلة

أليغريا العسكرية سأل:

- وهذا؟

- إنه هارب من الجيش.

صمت.

لا أحد أعاره اهتماما. حركات الألم، الكتف الجريح، الظلمة وضجيج الشاحنة حالت كلها دون تقديم توضيحات إضافية. بشكل فج بدأوا في السير، وبشكل فج قطعوا الطريق وصولا إلى القبطانية العامة. كانت مدريد مطفأة الأضواء لكنها لم تكن خالية. وعلى الرغم من أن الساعة كانت قد تجاوزت الثالثة صباحا، فإن أناسا عديدين كانوا على الأرصفة، وبقدر ما كانوا يقتربون من المركز، بقدر ما كان عدد المارة يتزايد، وبساحة بويرتا ديل صول كانت حركة ذهاب وإياب الجنود والمدنيين تجعل الساحة شبيهة بخلية نحل.

دخلوا عبر شارع مايور ولم يتوقفوا إلا عند وصولهم إلى داخل القبطانية العامة. هناك كان كل الرجال مرتدين لباسا رسميا ويؤدون التحية لرؤسائهم، وكان بالإمكان معرفة رتبة كل واحد منهم اعتمادا على النياشين والنجمات المعلقة. وجوده من جديد بين عسكريين محترفين جعل القبطان أليغريا يشعر بارتياح، فبينهم كان يعرف كيف يتصرف، وكان يفهم مغزى حركاتهم ورموزهم. إن الجيش، بغض النظر عن مسألة الولاء، يمثل بالنسبة إليه ما تمثله الخريطة للمسافر: كل فرد كان يحتل المكان المخصص له وكل المسافات كانت محددة.

تلك الساحة بدت له على الأرجح مثل فضاء له حرمة انتهكت في حركة محمومة وهرج لا يليق بالمكان. تقدم أحد حراسه من قائد عسكري وتحدثا عن الأسير من دون أن يتمكن أليغريا من التقاط ما قيل. لم يكن أحد يحرسه، لا أحد تنبه إلى لباسه العسكري النشاز على الرغم من أنه كان هنالك ما يكفي من الضوء لينير كل هذه الحركة. لم يكن مقيدا، ولا كان تحت الملاحظة، ولا كان مرهوب الجانب، ولا كان موضوع كراهية. لم يجانب الحق، فكاسادو كان سيستسلم. في شاحنة صغيرة أخرى، أنظف بعض الشيء من شاحنته، كانوا يضعون من دون نظام ولا ترتيب عددا كبيرا من الملفات والأغلفة والأرشيفات والوثائق من دون أن تُصنف، وكان الجنود يقومون برصها بعنف لاستعمال سعة السيارة على أحسن وجه. في حين استعملت وثائق أخرى لتغذية نار كانت تصدر فرقعات بوسط الساحة وهي تتلقى أوراقا كان مدنيون يقومون بانتقائها.

ظل لمدة لا بأس بها في وضعية استرخاء يتأمل تلك الحركة المحمومة لجنود وضباط كانوا يتجاهلون وجوده إلى أن أمره جنديان مسلحان بأن يرافقهما.

نزلوا إلى سرداب كانت به رائحة عفنة، وتم حبسه بزنزانة واسعة كان يوجد بها سجين. فقط بعد أن تعود على الظلام، انتبه إلى أن الأمر يتعلق بعسكري جمهوري برتبة عريف أول. كان رجلا هزيلا وقورا، ولاحظ أليغريا أنه كان رث الثياب. وبما أنه اغتاظ من رتبته العالية نظر إليه بوقاحة، وباعتبار أن الظروف لم تكن تدعو إلى الانضباط اكتفى بأن قال: «صباح الخير» بالشكل الأقل ارتباطا بالتقاليد العسكرية.

كان الفجر بدأ يطل.

ما الذي يمثله مهزوم بالنسبة إلى مهزوم آخر؟

بفضل الشهادة المتوافرة لدينا، نعرف أن مرافقه في الزنزانة قد اكتفى بأن طلب منه بشكل جاف بعض التبغ المفروم ليلف سيجارة، وأنه أظهر لامبالاة فظة حين علم أن الوافد الجديد لم يكن مدخنا.

قبع القبطان أليغريا بالزنزانة في أبعد نقطة ممكنة عن مرافقه، وترك نفسه يتهاوى في مكان قاتم بذلك السرداب الذي لا يصله ضوء كان بالإمكان استشعار وجوده من ثقب التسديد. نفترض أن ترتيب الوقائع كان له ارتباط ما بتوقعات المستسلم، لكن شيئا ما دنيئا كان ينقص من قيمتها الحقيقية، شيئا ما كان يشوه الأحداث ويجعل من استسلامه، الذي كان قد تصوره مملوءا بالتدقيقات والتلوينات الفكرية، أحقر ما يمكن القيام به.

أن نقدم افتراضات بخصوص ما تفكر فيه الشخصية المحورية لقصتنا يعني فقط اجتهادا لتفسير الأحداث التي تأكدنا من وقوعها. نعلم أن أليغريا درس القانون بمدريد أولا وبعد ذلك بسلمنكا. ونعلم، عبر أقوال بعض أقاربه، أنه تلقى التربية التي عادة ما يتلقاها الملاكون القرويون بويرمسيس بإقليم بورغوص حيث ولد سنة ١٩١٢ في حضن أسرة ذات أصول نبيلة، وترعرع في بيت كبير بقوسين من حجر وشعار كان يميز أهله عن محدثي النعمة الذين اغتنوا على حساب مجاعات الجنوب لما هزمت داء الجمرة وآفة الكرم وسوس القمح وأشكال أخرى من سوء الطالع القطيع والكرم والمحصول وأشجار الزيتون.

لم يكن طالبا لامعا وإن تميز بمثابرته، وقد علمه خيمينيص دي أسوا أن القانون لا علاقة له بالنظام الطبيعي، وأن على المشرع أن يكون منحازا لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لتحقيق المساواة. أما صاحب السلطة فتكفيه سلطته.

غير أنه فيما بعد، حين وجوده في سلمنكا، تعلم أن القانون هو فوق القوانين، وأن هذا القانون لا يختار شيئا. بل حدثوه كذلك عن قانون مضاعف التقديس. ومنذ أن بدأت تظهر عليه أولى علامات الرجولة، ربطته علاقة جدية ورصينة بإينيس هويبيلوس، الابنة الوحيدة لمالكي بقالة ميسورين، وقد ساهمت بسخاء لكي نتمكن من إعادة بناء هذه القصة.

وصل إلى علمنا أن أليغريا التحق بالجيش الثائر سنة ١٩٣٦ لأنه بذلك كان يدافع عما كان دوما في ملكيته. بالنسبة إليه، تعلق الأمر بحرب من دون معارك، من دون بطولات ولا أعداء، همها فقط تأمين الكميات الكبيرة من القمح والتبغ والألبسة وعد حمائل الخناجر وحالة الأحزمة وتدبير القذائف والأغطية والأحذية والثياب الداخلية للجنود. كانت الحرب بالنسبة إليه تعني أن يجمع ويوزع وينظم ويقسم ويدبر كل ما يحتاجه الآخرون ليقتلوا ويموتوا وينتصروا على عدو لم يره قط عن قرب، وإن كان دوما موجودا هناك كمنظر طبيعي لا يفتأ يزداد جمودا ويزداد تصلبا.

يعطينا الشق الأخير من تقرير إدارة الإمداد والتموين، الذي تعين عليه صياغته الليلة نفسها التي استسلم فيها للعدو، فكرة أساسية عن الحالة النفسية التي وجد فيها بعد ثلاث سنوات

من خوضه الحرب: «بعد إحصاء ما هو موجود تبين أن كل شيء يوافق بشكل دقيق اللوائح المرفقة، كل شيء باستثناء الضابط الذي يوقع على هذه الوثيقة والذي يعتبر نفسه دائرة مربعة، روحا معدنية، والذي إن كان يلعن عدونا فإنه لا يريد أن يشعر بأنه مسؤول عن هزيمته. التوقيع كارلوس أليغريا، القبطان المسؤول عن إدارة الإمداد والتموين...».

مرت أكثر من ساعة قبل أن يكسر ضجيج محركات الصمت الذي كان سائدا.

سأل العريف الأول:

- لقد استسلموا. أليس كذلك؟

في الخارج كان هنالك سكون ثقيل يلف أصداء حركة محمومة لكنها صامتة وحزينة. كانوا يغادرون مقر القبطانية العامة. لم يكن أحد يعطي أوامر فالكل كان يعرف ما يتعين القيام به: الفرار في أسرع وقت ممكن. وبدأ الهرج الصامت يتلاشى كما تلاشى مشروعه. وفي الساعة العاشرة صباحا - تمكن من أن يتحقق من ذلك في ساعة اليد التي ورثها عن جده - كان كل شيء قد ذاب في هدوء البقايا وحالات النسيان. عرف أنهما بقيا وحدهما. كان هو والرجل الهزيل المقيمين الوحيدين بمقر القبطانية العامة.

كان فرانكو يحكم سيطرته على مدريد. ساعة أو ساعتين بعد ذلك وصل القاطنون الجدد إلى مقر القبطانية العامة وتوزعوا بنظام وصخب لشغل كل مكتب وكل ممر. كان مركز القرار الآن في ملكيتهم.

كانــت تلــك الخطـوات ذات طابع عســكري، يرافقهــا إيقاع به ســلطة وطاعــة، خضــوع وتراتبيــة. تعــرف القبطــان أليغريا في حركــة الذهاب والإياب تلك على شــيء مألـوف لديه، على صوت الــذات. غيــر أن هذا الشــعور لم يمنحــه أي عزاء. بل شــعر على النقيـض من ذلك كأنه عاد إلى عالــم ما كان يرغب في الانتماء إليه، عالم هرب منه: شعر كأنه يبدأ من جديد.

ارتجاجــات أبــواب، أقفــال، مطرقــات أبــواب، وأشــياء أخــرى مســتعجلة أخرجت القبطــان أليغريا من حصــن ذاكرته. انفتح بــاب ذلك الســرداب وفوجئ ضابــط كان مصحوبــا بثلاثة جنود يحرسونه لما تبين له أن هنالك من لم يغادر تلك البناية المهجورة.

- وأنتما؟ ما الذي تفعلانه ههنا؟

هــذا الســؤال نفترضــه، لأن شــاهدنا، العريــف الأول الهزيل، تجنــب فــي حكيه أمارات الخنوع (قال لنــا: «فيما يتعلق بي، بعد كل ما رأيته في هذه الحرب، لم أعد لا مع هؤلاء ولا مع أولئك»)، ولكنه تذكر إصرار شخصيتنا على وضعه بصفته مستسلما.

- لمن استسلمت أيها القبطان؟

- للجيش الجمهوري، سيدي العقيد.

- متى؟

- هذا الصباح، سيدي العقيد.

التفــت العقيــد نحو حراســه ليتأكد من أن ما ســمعه كان صحيحا. لم يقم الحراس بأدنى حركة. في الجيش، أصحاب القــرار هــم من يفتــرض فيهــم أن يتكفلــوا بتأويــل الأوضاع الغريبة.

طلب منه بطاقته العسكرية التي تمعن فيها بارتياب وهو يبحث عن تفسير على الرغم من أن كل ما سجل فيها هو اسمه ورتبته ومساره القصير في الجيش. احتفظ بها في جيب قميصه، وبنبرة مستغربة أكثر منها متوعدة سأل:

- أحقا استسلمت هذا الصباح؟

- نعم، سيدي العقيد، استسلمت هذا الصباح.

- أنت غبي وخائن. ومن أجل هذا ستحاكم.

وعادوا إلى إغلاق الباب تاركين السجينين حيث كانا. لم يتجرأ العريف الأول على أن يرفع عينيه عن الأرض. كونه كان سجينا قد يشكل، وكان كذلك بالفعل، خشبة خلاصه.

سجلت حالات صمت موزعة على زمن بطيء لكنه مختصر، فقد بدأ سجناء يتوافدون على ذلك القبو بالوتيرة نفسها التي يتدفق بها الماء من العيون.

كان القبطان أليغريا يتفحص ذلك الحشد من المهزومين الذين كانوا ينقلون إلى سرداب مقر القبطانية العامة إلى أن تعرف على أحد السجناء: عرف فيه الشخص نفسه الذي رافقه ذلك الصباح من دي هيسا دي لافيلا إلى المستشفى العمومي كواترو كامينوس. كتفه المعصوبة التي كان يتدلى منها ذراع لا حراك فيها وحركة ألم يائس جعلتاه مألوفا في حظيرة الظلال. تعمد أليغريا أن يقترب منه وسأله إن كان يحس بالألم. مباشرة بعد وضع السؤال من المحتمل أنه أحس بخجل مراهق: لا شك أن كتفا ممزقة وهزيمة هما دوما مصدر ألم.

- هل بإمكاني مساعدتك؟
- تبا ! المستسلم !

تلك الجملة التلقائية المعترفة بوضعيته الحقيقية خلفت لديه بالتأكيد بعض الرضا، إذ إنه، وفق ما حكى لنا الجريح الذي ظل على قيد الحياة لأنه خضع لعملية قطع الذراع في اليوم نفسه الذي كان سينفذون عليه حكما بالإعدام، اكتفى بالقول «شكرا» ثم التفت إلى الخلف باحثا عن الخواء. أخيرا أصبح ما قرر أن يكون. أصبح عدو نفسه.

أغار فوج من السجناء على ذلك السرداب والتحقت دهشات جديدة وحالات خوف مختلفة واستكانات متباينة. وبعد ثلاثة أيام، وبعد أن أصبح الهواء لا يطاق، بدأت عملية نقل السجناء. بخصوص المراحل التي قطعها أليغريا من ذلك السرداب ليصل إلى كتيبة الإعدام، ليس في حوزتنا سوى بضعة معطيات غير دقيقة.

كانت وثائق حراس المتاهة والرسائل القليلة التي كتبها هي الوقائع الوحيدة الموثوق بها، وما تبقى كان هو الحقيقة. كان في إمكانه البوح بكل شيء بما أن الفرصة قد أتيحت له ليقوم بذلك. لكنه فضل أن يلتزم الصمت لأنه كان يصفي حسابا مع مرابيي الحرب.

نعلم أنه قد نُقل إلى أحد مستودعات مطار باراخاس حيث كان الجيش المنتصر وهيئة عدالته يقومان بتجميع الجنود ذوي الرتب لإخضاعهم لمحاكمات سريعة انتهت، من دون استثناء، بأحكام بالإعدام.

خـلال فترة اعتقاله بمطـار باراخاس اضطر الجنود المخلصون للجمهوريــة إلــى تجاهله بـل وإلى تجنبه بما أنه في رســالة أخرى كتبهــا إلــى خطيبته إينيس، وصلت متأخرة ثلاثة أشـهر لأسـباب غير معروفة، يصف بشكل غامض وضعيته ويشبهها بـ «مادة لا يبنز الأوليــة». لـم يتكلموا معه بل توجسـوا منه كمـا يتوجس من عدو وتجنبـوه فـي تلك اللحظات التي كانوا فيهـا جميعا يفكرون فيما تركـوه أكثـر من تفكيرهم فيما ينتظرهم. حدث كل شــيء بسـرعة فائقة وتهاوى بشـكل غير منتظر، مما جعل حياة القبطان أليغريا تتلاشى في أحاسيس غسقية، في حالات عزلة لا ترحم، وفي خوف وقح. لم يتجرأ على أن يصلي حتى لا يثير انتباه الإله وغيظه.

ظل في مسـتودع باراخـاس الكئيب من رابع أبريـل إلى الثامن منــه، وازداد ضعفه، وذبل مثل قرية جافة، وتبددت بالتدريج رباطة جأشه لشعوره إما بغثيان أو بدوار أو بإغماءة أو بارتعاشة أو بهجمة جـوع. اطلعـت فرقة من الكتائب على طبيعـة انتماء كل واحد من السـجناء الذين تلقوا، وهم في وضعية وقوف عسكري، صنوفا من الشـتائم والضربات والإهانات قبل أن تنزع شارات رتبهم العسكرية مـن لباسـهم ووثائقهـم وكل حوائجهم الشـخصية. رفض العقيد لوصـون – لا توجـد معطيـات أخـرى عـن انتمائـه – التخلي عن نجمات رتبته بما أنه حصل عليها بشكل مستحق في ساحة المعركة، فمحت طلقة مسـدس، في رمشـة عين، المرتبة والنجمات والحياة. محاولة فرار، هذا ما تم تسجيله ببساطة في شهادة وفاته.

غيـر أنه في يوم الثامن من أبريـل، جاءت اللحظة التي طالما انتظرهـا القبطـان أليغريـا. ففـي منتصـف الصباح حـين كان

ضوء النهار يحول ذلك المستودع إلى قفص لتوسلات حنين تتلى بصوت منخفض، ولحالات صمت مستحيل يعانيها مئات الرجال المكومين، نودي على الأسماء الأولى.

هذه هي الوثيقة الأكثر واقعية بخصوص ما حدث بالفعل، الحقيقة الوحيدة التي تؤكد قصتنا والتي من المحتمل تضمنها لكثير من نقاط التشابه مع ما نحن بصدد حكيه. ولولا خشيتنا أن يتم تأويل كلامنا بشكل سيئ لكنا اكتفينا بنقل محضر المحاكمة حينما تم الحكم على أليغريا بالإعدام رميا بالرصاص لأنه خائن ومجرم أساء إلى وطنه.

بشكل إرادي، تغاضينا عن الإشارة إلى الجزء الأول من محضر الحكم المستعجل المستند إلى القانون العسكري المطبق في حالة الحرب، والذي سجل فيه انتماء القبطان أليغريا، ونزع رتبته، وطرده من الجيش ونعته، استنادا إلى ذلك، بأنه خائن عسكري في زمن الحرب.

بعد اعتبارات عدة لا يتم فيها الحديث عن مساره العسكري ولكن عن بعض السلوكات الدالة التي استقيت من معلومات جمعت من رؤسائه المباشرين، يسجل المحضر ما يلي:

«لما سئل عن التاريخ الذي قرر فيه العبور نحو الخطوط العدوة، مرتكبا بذلك خيانته للجيش الوطني المجيد، يجيب بأنه قام بذلك في فاتح أبريل من سنة النصر الحالية».

«وعن سؤال حول الأسباب التي دفعته إلى أن يقرر خيانة وطنه يجيب قائلا إنه قام بذلك لأن الملازمين الأولين العقيدين طيا وبارون سيطرا في نوفمبر من سنة ١٩٣٧ على منطقة

فيلافيـردي ومنطقتـي كارابانشـيليس بمدريد. وأضـاف أنه قام بذلك لأن قوات أصينسـيو وكاصطيخون سـيطرت على «لا كاسا دي كامبـو» بمدريـد المحميـة من طـرف الفرقة الأولـى والفرقة الحادية عشـرة مـن القوات الأممية التي اكتفـت بالتراجع حتى ضفاف نهر مانزاناريص».

«وعن سؤال حول ما إذا كان المقال من وظيفته كارلوس أليغريا يعتبـر أن عمليات التقدم الموصوفة قد كانت سـببا كافيا لخيانة الجيـش الوطنـي المجيـد يجيب قائـلا: إنه قام بذلـك أيضا لأن الجنرال فاريلا أمر أصينسيو بأن يعبر بدباباته نهر مانزاناريص، الأمـر الـذي تمكن من القيـام به يوم ١٥ نوفمبر من سـنة ١٩٣٧، وهو اليوم نفسه الذي سيطر فيه بارون على المستشفى العسكري لكارابانشيل باخو».

«فعـل ذلـك لأن حكومـة الجبهة الشـعبية غـادرت مدريد في اليوم نفسه معتبرة أنها قد سقطت في يد العدو، وكلفت بالدفاع عنها الجنرال مياخا الذي لم يكن يوجد تحت إمرته سوى جيش مكون أساسـا مـن القوات الدولية التي أرسـلها الجنـرال كليبير عديم التجربة».

«فعـل ذلك ذلـك لأن أسينسـيوكابانيليس أحكـم قبضته في اليـوم نفسـه ١٥ نوفمبر علـى الحي الجامعي لمدريـد وهو يرأس زمـرة مـن جنـود نظاميـين منحدرين مـن تطوان وصلـوا حتى حديقة لامونكلوا ليشـرف الجنرال أسينسيو كابانيليس بنفسه على مستشفى مدريد للعلاجات الذي كان في طور البناء».

«ويتلقى المصرح أمرا بأن يصمت فيفعل».

«وعن سؤال حول ملابسات اطلاعه على الوقائع المذكورة، يجيب الخاضع للمحاكمة أن مرد ذلك إلى أنه كان مسؤولا عن تدبير إدارة الإمداد والتموين الجبهة الجنوبية والجنوبية الشرقية، تحت الأوامر المباشرة للجنرال فاريلا. ولهذا فهو يعلم أنه في نوفمبر من سنة ١٩٣٧ وصل العقيد ريوس كابابي ومحمد مزيان حتى الجهة العليا من شارع فيراص، بوسط مدريد، وهناك لقيا مواجهة من مقاومين كانوا بصدد التراجع».«ويتلقى المصرح أمرا بأن يصمت فيفعل».

«وعن سؤال حول ما إذا كانت البطولات المجيدة للجيش الوطني هي الدافع إلى خيانة الوطن، يجيب بالنفي، وأن السبب الحقيقي هو أننا لم نكن حينذاك راغبين في أن نربح الحرب ضد الجبهة الشعبية».

«وعن سؤال يقول إنه إذ كان صحيحا أننا لم نكن نريد ربح الحرب الصليبية المجيدة، فما الذي كنا نريده، يجيب الخاضع للمحاكمة: كنا نريد قتلهم».

بعد ذلك، طرد من الجيش وثبت اتهامه بجريمة الخيانة والتواطؤ مع العدو. وحكم عليه بالإعدام.

هنالك توقيع وطابع غير مقروءين.

تحدث القبطان أليغريا، أخيرا، عن موضوع قبول رؤسائه المباشرين لرشوات.

انطلاقا من هذه الوثيقة، تمتزج الوقائع التي نحكي عنها بخليط من الأخبار المتضاربة المشكلة من أحداث موثوق بها أحيانا أو ثمرة ذكريات غير واضحة حكاها شهود فضلوا النسيان.

ووثقنـا مع ذلك بذكريات غائمة متعلقة بجمل همس بها خلال حـالات نـوم قلق، واحتلـت مكانا ضمـن فظاعـة الحقيقة، على الرغم من أنها ليست مؤكدة بشكل قطعي.

اضطـر القبطـان أليغريـا، وقـد أصبـح مدنيـا، وقـد أصبـح خائنـا، وقـد أصبـح ميتا، إلـى العودة إلـى المسـتودع حيث حكم علـى العديديـن وحيـث كان آخـرون فـي انتظـار الأحـكام. كتب ثلاث رسـائل على الأقـل: واحدة لخطيبته إينيـس، وقد حصلنا عليها، وأخرى إلى والديه اللذين تهدم منزلهما بهويرميسـيص بفعل فيضان نهر أوربيل جارفا مع مياهه ذاكرة وممتلكات ورغبة عيـش لـدى عجوزين ثبتا نظرتهما، لما علمـا بفقدانهما ابنهما، فـي نقطة لا معنى لها مـن المنظر الطبيعي ولزما الصمت حتى أنهما قبل أن يسلما الروح لم يرغبا في الاعتراف أمام أي راهب.

أما الرسالة الثالثة فوجهها إلى الجنرال الأعظم فرانكو قائد جيش إسـبانيا. وقد علمنا بأمر هذه الرسـالة الأخيرة لأنه أشار إليها في الرسالة التي وجهها إلى إينيس: «كتبتها لا لأستعطف أو أطلـب العفـو، ولا لأظهر ندمي، ولكن لأقول له إن ما رأيته قد عاشـه آخرون، ولذلك فمن المسـتحيل أن يظل منسـيا بين أزهار السوسن».

فـي رسـالة أخـرى إلـى إينيـس، التـي كانـت تشـتغل معلمة بأوبييرنا، يتحدث بشـكل خفي عن العزلة التي تجعل منه بقايا إنسـان، وكمـا فعل ذلك من قبل مع القديـس خوان دي لا كروث، عليه أن يلجأ إلى جمل صاغها آخرون ليتحدث عن نفسـه، كأنه لا يجـرؤ على اسـتعمال عواطفه: «أنا كائن كان، وكائن سـيكون،

وكائن متعب الآن». لا تأثر هناك في لحظة وداعه، ولا حتى حبّ، فقط عويل منتشر وطعن ضد من عاصره، والأسى على حياة ضائعة. «لم يكن لدي وقت لأضع خططا لحياتي لأن فظاعات أخرى جعلت مستقبلي معلقا. ولكن تأكدي أنني لو كنت قد وضعت تلك الخطط لكنت أنت العمود الفقري الذي يمنح التوازن لمشروعي».

إذا كان علينا أن نتخيل ما أصبحت عليه الحياة بالنسبة إلى القبطان أليغريا، تعين علينا أن نتحدث عن زوبعة من زيت: بطيئة، ولزجة ولا يمكن تجنبها. حاملا وحدته من مكان إلى آخر في مستودع الآلام ذاك، يلفه الفراغ، ناقلا معه المسافة بينه وبين الكون، ترقب اللحظة السابقة عن النهاية وهو لا يعرف أن النهاية لم تكتب بعد.

تسعة أيام وهو ينتظر دوره. كل صباح، اعتمادا على المصادفة وعلى شكل قافلة، كانت مجموعة من السجناء تجبر على الانتظام مثنى مثنى بالمستودع لتساق إلى شاحنات كانت تختفي في منظر طبيعي فاتر ومقفر. قليل هم أولئك الذين كانوا يلقون تحية الوداع. كان أغلبهم يذهبون في صمت. من المحتمل أن الموت من دون تأثر سيبدو لأليغريا شيئا مألوفا نظرا إلى تعوده على تأمل عدوه، غير أن الحياة، وقد ارتهنت إلى الوجود أو عدمه عند الزاوية المختارة لانتقاء الموتى، لا بد أنها قد أصبحت بالنسبة إليه غير محتملة. كان أليغريا يرفض الصدفة ويحتاج إلى النظام. نستطيع أن نفترض أنه شعر ببعض الارتياح حينما كان، وهو منهك القوى، أحد الذين شكلوا القافلة يوم ١٨ تحت

مطر شديد. في الشاحنة، مكدسين ومنشغلين بحفظ التوازن، كان كل المحكومين ملتصقين، متشابكي الأيدي ويتبادلون النظرات. في منتصف الطريق، بحثت يد ما عن يده وتبخرت وحدته حينما ضمته يد بصمت وبشدة مما منحه موضعا في طائفة المهزومين. تلت ضمة اليد نظرة، ثم نظرات أخرى، وعيون محمرة بفعل الضعف والبكاء المخنوق. «سامحوني» قال ثم غاص في تلك الجلبة، جلبة الأجساد الحزينة. كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحا حين وصلوا إلى أركاندا ديل راي. كل شيء كان مهيأ. حاجز من حجر، بقايا إسطبل مهدم، ساحة واسعة، كتيبة الإعدام، وصف من الحراس الذين أحضروا كل ما يلزم من أجل التنفيذ. شاحنات أخرى، محكومون آخرون، حالات يأس جديدة التحقت بالحفل. كان هناك قس بشال بنفسجي يرتل باللاتينية دعوات لاستجداء الرحمة. كان عددهم يقارب المائة، وكان عليهم أن يتزاحموا حتى لا يتجاوزوا مقاس الجدار. لحظات من الصمت لكي ينهي القس ابتهاله بإشارة مباركة رسمها في الهواء بفتور وداع حزين ومباشرة بعد ذلك سمع صوت يأمر: «كتيبة»، ساد الصمت ثانية، وأمر الصوت: «صوبوا»، وبعد سيادة الصمت من جديد سمع الأمر التالي: «أطلقوا النار».

إذا كان أحد ما قد صرخ، فلا أحد تمكن من سماعه. حين استعاد القبطان أليغريا وعيه كان مدفونا في قبر جماعي مختلطا بسديم من الأموات والتراب. لزمه بعض الوقت لفهم ما جرى، غير أنه لما شعر بالألم عرف أنه قد انتهك مجددا قوانين عالم كانت العودة إليه ممنوعة. كان على قيد الحياة.

مزيج من نخاع وغضاريف جامدة، ودم مختثر وبراز، وأنفاس محبوسة، وقلوب فاجأها الموت فاحتفظت بأكياس هواء في ارتباك الأموات، هذا ما مكنه من أن يتنفس على الرغم من أنه كان مدفونا. كان على قيد الحياة. هنالك ظلمة للأحياء وأخرى للأموات. وأليفريا خلط بينهما لأنه لم يحاول فتح عينيه، لكنه لما سمع بكاءه عرف أن ذلك لم يكن صمت الأموات. كان على قيد الحياة.

تحدث أليفريا دوما عن هذه اللحظة باعتبارها ولادة. احتاج، وهو خائر القوى، إلى بعض الوقت لتبين حدود جسده المرتخي والمضغوط بجثث مدفونة بعضها مع بعض. كان التهاب بالرأس يؤلمه إلى درجة جعلته يظن أن جمجمته قد انقسمت إلى نصفين. وببطء، وحتى لا يزعج راحة أولئك الأموات، بدأ يقرب ذراعيه من جسده متوقفا بعد كل مجهود يبذله لكي لا يلهث فقد كان يخشى أن يستنفد الهواء المتوافر. كان يستجمع ما يستطيع من القوة حتى يتخلص من الثقل الذي يشل حركته. قبل أن يعدم، كان قد رأى الحفرة التي كان مدفونا فيها. وبالنظر إلى عمقها، لم يكن بالإمكان أن توجد جثث كثيرة فوقه. حاول عدة مرات، وفي كل محاولة تبين له أن شيئا ما كان يتحرك فيخف ضغطه إلى أن تمكن من التحكم في الوضع ووجد نفسه مباشرة تحت السماء. ملأ التراب المكان الذي كانت تشغله جثته وزحف إلى أن وصل إلى مرتفع ثم ترك نفسه يسقط إلى أسفل محاولا إيقاف بكائه. كان كاملا لا تنقصه إلا النظارات.

كانت رصاصة قد أصابت الجهة العليا من جبهته، ولحسن حظه مرت بمحاذاة جمجمته مخلفة جرحا غائرا يكاد يصل إلى العنق من دون أن يكسر الوجه. كان هنالك دم بوجهه وبصدغيه وعنقه، غير أن التراب خفف من خطورة الجرح، وعلى الرغم من أنه ينزف الآن من جديد، فإنه لما كان مغشيا عليه كان لقلبه سبب آخر لينبض عدا الخوف.

كان الليل قد بدأ يسدل ستائره.

هنا ستبتدئ تقلبات في حياة أليغريا، لدينا بصددها تفاصيل قليلة، فهو إذا كان أحيانا يقبل التطرق إلى ما حدث قبل واقعة انبعاثه، فإنه نادرا ما قبل أن يحكي لأي كان عن كيفية قطعه المسافة الفاصلة بين أركاندا ديل ري ولاأصابيدا القرية الجبيلة الموجودة بالجهة الشمالية من جبل صوموسييرا. كانت غرانيت ونبات نشابة وجبال تحيط بهذه القرية المبنية بالآجر والحجر، والتي كانت تظل تحت الثلج في سبات طوال فصل الشتاء وتنشغل بعمليات حرث لما يصل فصل الربيع بأجوائه المعتدلة.

ذات مرة، أخبر أحد سجانيه أن الجميع، باستثناء الحيوانات، كانوا يهربون منه، يفرون عندما يرون أن ذلك الرجل المتسخ الهزيل الذي يشع الألم من نظرته، كان على قيد الحياة. في تلك الأيام وحدهم الموتى لم يكونوا مصدر خوف.

عثروا عليه في حقول لاأصابيدا منهكا يحتضر، وقد حسبه بعض القرويين في البدء ميتا، لا لأنهم لما قرروا نزع الحذاء عن رجليه، سمعوا تلك الرأس المضرجة بالدماء تطلب ماء. كان

مرتديا اللباس الرسمي للجيش الذي كان قد انتصر من فوره في الحرب في حين كان يرتجف باختناقات مهزوم.

الآن نعلم أنه كانت هنالك مجموعة من الخيارات تراوحت بين دفنه حيا، بعد أن عرفت الجهة التي أطلقت عليه النار، أو تركه يموت بين نبات النشابة، أو إخبار السلطات بأنه قد عثر عليه. غير أن عجوزا حازمة قررت أن تعطيه ما كان يطلبه وأن تمسح وجهه بتنورتها.

قالت: «كلنا أبناء الرب، بما في ذلك هؤلاء». بدأت هكذا سلسلة من الإسعافات للجريح امتدت طوال ثلاثة أيام ليظل ذلك الميت على قيد الحياة. كان كل شيء يشارك في المؤامرة حتى يتعذر عليه أن يستقيل من الحياة بالطريقة نفسها التي يمكن أن يتخلص بها النائم من حلم عند اليقظة.

أبقوه هناك بين نبات النشابة، من جهة بسبب الخوف، ومن جهة أخرى لتجنب خطر أن يموت خلال عملية النقل. عالجوا الجرح بمواد لا فائدة منها، لفوه بغطاء وأعطوه ماء وبعض الغذاء. اليوم نعلم أن ذلك كان، في تلك الظروف، فيضا من الرحمة، قدّره أليغريا حق قدره بأن تجنب ذكر أسمائهم.

أن يقترب أحد من رجل عفن ولزج بسبب البراز والدم، أن يرفع رأسه، وأن يضع ماء في شفتيه بوداعة، وأن يطعمه بملعقة حساء يمكن للأموات هضمه، وأن يقول له جملة مواساة، كل ذلك كان علامة على أن شيئا إنسانيا ظل حيا على الرغم من الخراب الذي سببته الحرب. ولولا شفتاه المتشققتان، لكان أليغريا قد ابتسم. هكذا حكى عن ذلك، وهكذا ننقله بدورنا.

كذلك حكى للممرضين الذين كان يتعهدونه في السجون التي حل بها لاحقا، أنه لما كان هنالك ممدودا، متجاهلا نداء الأرض التي كانت تطالب بما في ملكيتها، لم يكن الخوف من الموت هو مصدر عذابه، بل الخجل من أن يروه في تلك الحالة من التحلل، والخجل من أن يشموا نفسه المثير للغثيان، أو أن يتسخ من يمد له يد العون حين يلمس التقيح الذي تفرزه جروحه. كان يلف نفسه بالغطاء حينما كانوا يحضرون له الغذاء ولم يكن يسمح لأي كان بأن يقترب. الآن نظن أن ذلك كان على الخصوص طريقة لتجنب الإدلاء بتفسيرات. كان صباح اليوم الرابع من دون سُحب، وكان الغطاء مضمخا بالندى حتى أن الحمى لم تشفق على شيء ولا حتى على عظامه. كان يتمنى الموت بهويرميصيص، لكن الحياة كانت باقية بالنسبة إليه على شكل مزق في تلك المناطق البعيدة غير المضيافة. استجمع كل قواه ووظف حتى ارتعاشاته لكي يتحرك، وبعد ثنيه للغطاء ليعلن عن امتنانه وضع الماء والبطاطس المسلوقة في الإناء الذي كانوا يحضرون له فيه الغذاء، ثم بدأ مسيره نحو قريته الواقعة وراء الجبال التي كانت تخفي وحشيتها بين السحاب. بدأ في السير في اتجاه قمة الجبل قاصدا صوموسييرا.

تبرز تلك الجبال هناك لتقسم إسبانيا إلى قسمين، والآن يحلو لنا أن نعتبر أن المجهود الشديد المطلوب لاجتيازها كان شكلا آخر لتجاهل وجود هذه الجبال الفاصلة، وكان مرادفا للرغبة في الوجود في الجهتين.

بحث عن السبيل الذي تاه عنه بفعل تأثير الحمى، وارتقى تلك العقبة المحاذية للطريق حتى لا يراه من كانوا ينتقلون من جهة إلى أخرى. كان الأمر يتعلق دوما بفرق من الجيش تنقل مؤونة أو جنودا أو سلاحا وكل ما يمكن احتياجه لمواصلة السيطرة على الأرض التي تم غزوها. حركات خاملة لحرب، مثل حروب أخرى، تنقضي، لكنها لا تجد حلا أبدا. فقط من حين إلى آخر كانت تمر سيارة مدنية ولا أحد بإمكانه الجزم أنه لا يتم حجزها. كان أليغريا يعرف أن كل من لهم سلطة التحرك بحرية يحتمل أن يكونوا خصوما له. هذا لم يكن يعني أن الخاملين، الصامتين، لم يكونوا أعداء له، ذلك أنه كان يجهل إلى أي الفريقين ينبغي لجندي أن ينضم بعد أن يربح حربا ويخسرها في آن معا.

وعلى الرغم من رغبته في التخفي، فإنه لم يتجرأ على الابتعاد عن الطريق لأنه كان يخاف من أن يفقد القوى الضرورية لكي يواصل العيش، وفي هذه الحالة، سيتمدد على الطريق ليعثروا عليه ويدفنوه على الطريقة المسيحية، أو على الأقل، لن يقبلوا بأن تنتهي بقاياه طعاما للذئاب والكلاب الوحشية التي كانت تتسكع بصبر منتظرة نهاية ذلك السفر المقدس. وألحّت عليه فكرة تقول إنه إذا كانت الأجساد ستبعث فإن الأمر يتطلب أن يكون مظهر الهالكين مقبولا بعض الشيء، في حين لم لم يتبق لديه سوى تعفن ذي رائحة كريهة ومهينة. كانت رائحته النتنة من القوة بحيث كان من المستحيل أن يمر من دون أن يثير الانتباه برغم الخلنج والنشابة والربيع والزعتر.

كل تلك الاحتياطات جعلت الطريق يطول ثلاثة أيام إضافية، واكتفى في اليوم الأول بالبطاطس المسلوقة، ولكنه فيما بعد، ومع تزايد برد القمة، لم يجد سوى أحد الأكياس ليستعمله كثوب يلفه في الليالي لحفظ حرارة الجرح لما تشتد الشمس في الظهيرة.

وأخيرا وصل إلى صوموسييرا، قرية من الغرانيت والحجر يحتاجها المشهد ليصبح جميلا. وصل بعد الزوال، بشمس مائلة وقوية ساعدته على الاقتراب من المنزل الصغير الذي جعل منه الحراس مقرا لهم. هنالك كان جنود الجيش الذي ربح الحرب الأخيرة، باللباس الرسمي، بأحذيتهم، ومعاطفهم الرخيصة والأسلحة التي كان مكلفا، طوال سنوات، بتنظيم توزيعها.

لم يشعر بأي حنين ولا ندم، غير أنه شعر ببعض الشجن.

تأملهم من خلال نظره الحسير خلال ساعات إلى أن نزل الليل، وكان على الجنود إيقاد النار لإضاءة الطريق وليستدفئوا. تأمل عملية تناوب الجنود على الحراسة التي تنجز بشكل مضحك، عملية تتم من دون معرفة بالأمر وبفتور كان يعكس ضجرا أكثر مما كان يشير إلى نصر.

ربما واتته حينذاك الفكرة التي سجلها في تقييدات عثر عليها بجيبه يوم موته الثاني، الحقيقي، ذاك الذي حدث فيما بعد، لما رفع غطاء الحياة ببندقية منتزعة من حراسه.

«هل هؤلاء الحراس النحيفون والضجرون الذين أراهم هم الذين انتصروا في الحرب؟ لا، إنهم يريدون العودة إلى منازلهم، حيث لن يصلوا بصفتهم جنودا منتصرين، ولكن بصفتهم

غربـاء عن الحياة وغائبين عما يعنيهم، وسـيتحولون، تدريجيا، إلى مهزومين. سـيختلطون مع أولئك الذين هزموا وسيتميزون عنهـم فقـط بآثـار الأحقـاد المتعارضـة. وسـيكون مآلهـم أنهـم سـيخافون، كمـا هي حـال المهزوم، مـن المنتصـر الحقيقي الذي انتصر على الجيش العدو وعلى جيشه نفسه. فقط بعض الموتى سيتم اعتبارهم مؤثرين في الحرب».

كل التأمـلات، بالإضافة إلى الذاكرة، لا بد أنها ظلت مدفونة تحت الحمى، تحت الجوع، تحت التقزز الذي كان يشـعر به تجاه نفسـه. وهو يسـتجمع القوى القليلـة التي كانـت مازالت لديه، وكان قـد بـدأ يزحف، إذ لـم يعد قادرا على الوقـوف، واقترب من الحـراس ببـطء مـن دون أن يعيـر اهتمامـا للاندهـاش والنفور اللذين أحس بهما الجنود لما رأوا هذه الفضلات تزحف.

وحينما تغلب على بكائه قال:

- أنا واحد منكم.

الهزيمة الثانية: ١٩٤٠
أو مخطوط عثر عليه في النسيان (*)

عثر على هذا النص العام ١٩٤٠ بمرج بأعالي صوميدو، حيث تتواجه منطقتا أستورياس وليون. كما عثر على هيكل رجل راشد، وجسد عار لرضيع محفوظ بشكل مدهش فوق أكياس من القنب موضوعة على نضيدة من التبن: كانت جلد ذئب وصوف ماعز جبلي ونبات سرخس جاف تغطيهما. كان الجسدان متلاصقين وملفوفين في غطاء ملاءة بيضاء، «كأنهما يشكلان عشا»، تسجل الوثيقة، تتناقض نظافته مع المسكن المتسخ والنتن والبئيس. كانت هنالك بقايا جافة محتفظة برائحتها الكريهة لبقرة من دون قوائم ومن دون رأس. وفي العام ١٩٥٢، خلال بحثي عن بعض الوثائق في الأرشيف العام للحرس المدني،عثرت على مظروف أصفر كتب عليه: «هالك مجهول الهوية». كان المظروف يتضمن دفترا بمعجون مشمع، أوراقه قليلة وبها مربعات ومضمونها هو ما أنقله. كان مكتوبا بخط جميل ومنظم. في البداية كانت الكتابة بحروف كبيرة بدأت بالتدريج تصغر كأن المؤلف بدت

(*) وصل هذا الفصل، مع بعض التحويرات، إلى نهائيات الجائزة الدولية للقصص ماكس أوب ٢٠٠٢ ، ونشرته مؤسسة ماكس أوب. تشكراتي للذين أذنوا لي أن أدرجه في مكانه الأصلي.

له أشـيـاء إضافية للحكي فخشـي ألا يسـع الدفتر. أحيانا تبدو الهوامـش مزينـة برمـوز غير مفهومـة أو بتعليقـات مكتوبة في وقـت لاحق. هـذا الأمر يسـتخلص أولا من شـكل الخط (الذي كما أقول يصغر المرة تلو الأخرى ويصبح أكثر دقة)، لأنه على ما يبـدو يعكس حالات نفسـية متباينة. على أية حال، أسـجل هذه التعليقـات فيما يقابلها مـن صفحات. وقد عثر راع على الدفتر موضوعا فوق كرسـي تحت حجر ثقيل ما كان ليتركه أحد هناك مـن دون ترتيـب مسـبق. وكان كل ما سـجله حـارس الأمن الذي رفع التقرير هو: صرة جلدية خاوية وفأس وسـرير من دون فراش وكأسان من طين فوق الموقد المنطفئ. كان لباس نسائي متواضع وأسـود معلقا. لم يتم العثور على علامـات إضافية للحياة، غير أن التقريـر يسـجل - وهذا ما دفعني إلى قـراءة المخطوط - أنه كانت هنالك جملة تقول: «شرذمة مفضوحة لطيور ليلية»، وهذا هو النص:

الصفحة ١

ماتت إلينا خلال الوضع. لم أتمكن من إبقائها في هذه الجهة من الوجود. غير أن ما يحير هو أن الطفل مازال حيا.

إنـه هنـا، مرتـخ ويرتجف فوق قمـاش نظيف إلـى جانب أمه المتوفاة. وأنا لا أدري ما الذي عليّ أن أفعله. لا أتجرأ على لمسـه. بكل تأكيد سأتركه يموت إلى جانب أمه التي ستعرف كيف تعتني بـروح طفـل وتعلمه أن يضحك إذا كان بالفعل هنالك مكان لكي تضحـك فيـه الأرواح. لن نهـرب الآن إلى فرنسـا. من دون إليـنا

لا أريـد الوصـول إلى نهايــة الطريق. من دون إلينــا، ليس هناك من طريق.

كيـف يمكـن تصحيح الخطـأ المتمثل في أن يكـون المرء حيا؟ لقـد رأيـت موتى عديدين، ولكنني لم أتعلـم كيف يمكن للمرء أن يموت!

الصفحة ٢

ليس من العدل أن يباغتنا الموت بهذا الشكل المبكر من دون أن يكون هنالك متسع من الوقت لتعلن الحياة عن ولادتها.

تركـت كل شــيء كما كان. لا أحد فـي إمكانه أن يقول إنني قد تدخلت. الأم ميتة والابن يعلن عن أنه حي بحركاته المتكررة وأنا جامد من أثر الخوف. رمادي هو لون الهروب وحزينة هي إشاعة الهزيمة.

(هنالـك مقطع شـعري... ويمكن قراءة بعـض الكلمات منها «متــين»، «دون ضـوء» أو «ضوئـي» ، الأمـر غيـر واضـح، «نسـيان الضجيـج». وعلى الهامش وبخط أصغر هناك جملة تقول: «هل هذا الطفل هو سبب الموت أم هو ثمرته؟»).

الصفحة ٣

أريد أن أترك كل شـيء مدونا لأشــرح لمن سيعثر علينا أنه هو أيضا مدان، هذا في حالة ما إذا لم يكن هو أيضا ضحية. ألتمس ممـن سـيقرأ ما أنا بصـدد كتابتـه أن ينشر بقايانـا على الجبل. لم تسـتطع إلينا الوصول إلى نقطـة أبعد، وأنا والطفل نريد أن

نظـل إلى جانبها. تهمتـي الوحيدة أنني لم أعمل على تجنب ما وقـع. لم أتعلـم أن أراوغ الحزن، والحزن فصل عني إلينا بمنجل. بالإضافة إلى أني لا أتقن سوى الكتابة وحكي القصص. لا أحد علمنـي أن أتحـدث حينما أكـون وحيدا، ولا أحـد علمني أن أقي الحياة من الموت. أكتب لأنني لا أريد أن أتذكر كيف تقام الصلاة، ولا كيف توجه اللعنات.

كيف لقصة بهذا الجمال أن تنتهي في جبل تهزه الريح؟ نحن الآن فـي شـهر أكتوبر، غير أنه في هـذه الأعالي يتحول الخريف كل ليلة إلى شتاء.

بكـى الطفل طوال اليوم بقوة مدهشـة. توفق في جعلي أفكر فيه وإن كنت قد سمرت نظرتي في وجه إلينا الميتة، ومر الصباح بأكملـه مـن دون أن أعيـره أي اهتمـام. الآن انتبهت إلـى أني لم أذرف أي دمعـة، ربمـا لأن بكاء الطفل كاف وضـروري. أنا ما كان بإمكاني البكاء بكل هذه الحرقة، وما كنت لأستطيع الصراخ بكل هـذا الحنـق. بكيت إلينا من دون أن أبذل أي مجهود. كيف يمكن لإنسان أن يبكي وأن يغشى عليه في الوقت نفسه ؟ الآن يبدو أن الطفـل لـم يعد يحس بأي شـيء. اقتربت لأنظـر إليه وتبين لي أنه مازال يتنفس، غير أني شـعرت، حينما حاولت أن أحركه، كأن أحدا ما قد نزع عنه هيكله العظمي.

الصفحة ٤

تأملت مليا وجه إلينا الأبيض، لم يعد شحوبها بالقوة نفسها كمـا كان في لحظـة الاحتضار. بكل بسـاطة فقـدت كل الألوان.

ربمـا كان الموت شـفافا ومجمدا. خلال السـاعات الأولى شـعرت بالحاجـة إلى أن أبقي يدها بين يدي، لكني بالتدريج فطنت إلى أنـي ألمس أصابع لا تداعبني، وخشـيت أن تكون هذه هي الذكرى التي سـتظل مطبوعة بجلدي المنهك. مرت عدة ساعات من دون أن ألمسـها، كمـا فقـدت القـدرة على أن أتمـدد إلـى جانبها. على نقيض الطفل. فهو الآن يرقد منهك القوى مسـتكينا قرب أمه. للحظـة اعتقـدت أنه كان يرغب في أن يعيد الدفء إلى الجسـد الجاثـم الـذي كان له ملجأ خلال الفترة التي اسـتمر فيها دوي الحرب.

أجـل. لقد خسـرنا حربـا، وإذا مـا تركنا الفاشـيين يقبضون علينا فسـيكون ذلك بمنزلة إهدائهم نصرا آخر. رغبت إلينا في أن تتبعني، والآن نعرف أن قرارنا كان خاطئا. لست أريد التخلي عن فكرة أن خطأ بهذا السخاء لم يرتكب قط.

كان يتعين علينا أن نأخذ بعين الاعتبار موقف والديها اللذين أستسمحهما إذ وافقا مضطرين على أن ترافقني إلينا في رحلة هروبي.

قلـت لهـا: عليـك أن تمكثـي، لن يـؤذوك. أجابت: سـأتبعك. سيقتلونني. سأموت. كنا نتحدث عن الموت لنترك الحياة ظاهرة للعيـان. لكننـا أخطأنـا. مـا كان علينـا أن نبدأ سـفرا بـكل هذا الطـول وهـي حامل في شـهرها الثامـن. لن يعيـش الطفل وأنا سـأترك نفسي أسـقط على المراعي التي سيكسوها الثلج إلى أن تزهر في بؤبؤة عيني أزهار ستزعج من فضلوا موت الشعر.

ميغيل، ستتحقق نبوءتك!

أيـن أنـت الآن يـا ميغيـل، ومـا الـذي يجعلـك تتخلـف عن مواساتي؟ أنا مستعد لأن أضحي بما لا يحصى من الزمن مقابل أن أتمكن من سـماع أبياتك الرقراقة، كلماتك المتزنة، نصائحك الصديقـة. مع كل هـذا الألم، ربما أصبح شـاعرا يا ميغيل. وقد لا تحتـاج إلـى أن تظهـر كل ذلك الرفق الـذي أظهرته دوما. هل تتذكر عندما كنت تناديني رامي السهام البروليتاري؟ كانت إلينا تعزك لذلك وستواصل معزتها لك برغم أنها ميتة.

الصفحة ٥

هـل كانت إلينا سـتفضل أن أفصل الطفل عن غشـاء الجنين الـذي يلفـه، وأن أربط حبل صرته مع إحدى فردتي جزمتي، وأن أحـاول إهانة المنتصرين بهذه الحياة وهي تفرض نفسـها وتأخذ بثأرها؟ أظن أنها ما كانت تريد ابنا مهزوما. أنا لا أرغب في ولد هو ثمرة الهروب. ابني لا يريد حياة ولدت من رحم الموت. أم تراه يريدها؟

إذا كان الإلـه الـذي حدثوني عنـه طيبا، فسـيتيح لنا فرصة اختيـار ماضينـا، لكن لا إلينـا ولا ابنها بإمكانهمـا الرجوع إلى الـوراء فـي هـذا الطريق الموصـل إلى هـذه المرجة التي سـتكون بمنزلة قبر لإلينا.

هذا الصبـاح، نمت متكئا على الطاولة. أيقظني بكاء الطفل الـذي هـو الآن أقل حـدة ويذكر بفترة النقاهـة. البارحة لم أبال بحنقه، وشكواه اليوم خلّفت لديّ حزنا. لا أدري إن كنت مذهولا مـن جـراء النوم والبـرد أم أن قواي بدأت تخور هـي الأخرى بعد

ثلاثـة أيام دون تناول أي طعـام، غير أن المؤكد هو أنني، ومن دون أن أفكر في الأمر، وجدت نفسي أرضعه قطعة ثوب مبللة بحليب ممـزوج بالماء. في البداية كان مترددا بين أن يعيش أو أن ينسـاق وراء مشـروعي، لكـن بعـد برهـة، بـدأ يمص السـائل مـن قطعة الثوب. تقيأ ثم واصل المص بشراهة. الحياة تفرض نفسها مهما كان الأمر مكلفا.

أظن أنني أخطأت حينما حملته بين ذراعي، أظن أنه كان من الخطـأ إبعاده للحظة عـن الموت، غير أن حرارة جسـمي والغذاء الذي تمكن من تناوله أغرقاه في نوم وهن وعميق.

الصفحة ٦

صنعت مهدا بأكياس من القت وغلفته بغطاء السرير المنسوج الـذي ورثتـه إلينا عـن جدتها، وقـد ألحت على أخـذه معها كأن كل ماضيهـا يتلخـص فيـه. لـم يعد الغطـاء بالجاذبية نفسـها التـي كانـت له عندما هربنا معا، ولكنه يمنـح دفئا للطفل، ومن المحتمل أنه مازال محتفظا ببعض رائحة الأم.

عليّ أن أعترف أنني لم أحتمل المقارنة بين الحياة والموت.

أن أراهمـا معا على الفراش نفسـه، الوجه إلـى الأعلى، إلينا خائـرة القوى إلى أقصى حد، وهـو عاجز عن الإتيان بأي حركة، جعلنـي أشـعر بأننـي أضـع خطا بـين الحقيقـي والمزور. بشـكل فجائـي، كان المـوت موتـا ولا شـيء غير الموت، بعـد التخلص من بسـاطة الجسـم، ودون البعـد الحيوانـي للحيـاة. إن جثـة، بعد مـرور ثلاثة أيام، تصبـح معدنا مـن دون رطوبة النفس، ومن دون

هشاشة الأزهار. إنها ليست حتى شيئا أعزل، إنها شيء عاجز على أن يشعر بأنه محاصر، ومع ذلك، فإنه يقبع كأنه لا يريد أن يثير الانتباه. إن جثة، بعد مرور ثلاثة أيام، هي مجرد إحساس بالوحدة، وتفتقد موهبة الحزن. ويصبح حبل الصرة بالتدريج أكثر جفافا حين يشرع الطفل في البكاء.

(على جوانب هذا النص هنالك رسم جد دقيق حيث يمكن أن نتبين نجمة هاربة أو تشخيصا طفوليا لطيارة من ورق وهي تصطدم بهلال يبكي).

الصفحة ٧

لم أتناول طعاما. مازال بحوزتي بعض الخبز الجاف وسمك مجفف تزودنا بهما خلال رحلة الهروب. عاد الطفل إلى مص الحليب الممزوج بالماء. يبدو أنه يحس بالشبع. اليوم سأدفن أمه إلى جانب شجرة البلوط. لا أملك ما يكفي من القوة لأحلب البقرات، ولكنها معرضة للأمراض وخوارها هو الآخر لا يتركني أفكر في إلينا. آمل أن يصعد أحد من الوادي ليقتاد الماشية حتى لا يكون عليّ أن أقرر إن كنت سأتناول طعاما أم أترك نفسي تتهاوى. ولكن في زمن الرعب هذا، ترتب الماشية حياتها على هواها. ما لم يصل فصل الشتاء، ستظل هذه الحيوانات تتجاهل وجود الذئب والبرد والعلاقات التي تقيمها قوى الطبيعة فيما بينها. اليوم تحديدا، نحن تحت رحمة الظروف نفسها. البقرات الأربع أو الخمس التي يتعين حلبها ستهلك إن لم يقم أحد بذلك. كيف اختفى من كان يعتني بها الآن بالضبط؟ ولكن هذا

لا يهم في هذه الأيام المشؤومة. زد على ذلك، أنني في انتظار اتخاذ قرار وسأحتاج للحليب من أجل الطفل.

السماء تمطر. هذا أفضل. لا أحد سيتجرأ على الصعود حتى هذه المرجة. على الرغم من هذا المناخ الرديء تمكنت من إدخال بقرتين إلى الإسطبل. إحداهما تعاني من التهاب في الضرع. عليّ أن أقتلها حتى لا تتعذب. اليوم أكل الطفل ثلاث مرات.

الصفحة ٨

البارحة دفنت إلينا تحت شجرة زان. هي شجرة أكثر هشاشة من شجرة البلوط وأكثر ارتخاء. صوت ارتطام التراب فوق جسمها المتصلب ورائحة جسدها المتحلل جعلاني أبكي وأختنق إلى حد أني شعرت بأنني أنا أيضا سأموت. غير أن الموت لا يعدي. الهزيمة تفعل. وأشعر بأني ناقل لهذا الوباء. أينما حللت ستكون رائحتي رائحة هزيمة. وبسبب الهزيمة ماتت إلينا، وبسبب الهزيمة سيموت ابني الذي لم أمنحه بعد اسما. أنا خسرت حربا وإلينا التي لا أحد كان بإمكانه أن يعتبرها عدوة له، ماتت مهزومة. وابني، ابننا، الذي لا يدري أنه ثمرة التماعة خوف، سيموت مريضا بالهزيمة.

وضعت حجرا كبيرا فوق قبرها. لم أكتب اسمها لأنه إذا كانت هنالك ملائكة، فأنا متأكد أنها ستتعرف على الروح السخية لإلينا من بين آلاف الأرواح السخية.

أحاول أن أتذكر أبياتا لكارسيلاسو لأصلي على قبرك، إلينا، ولكني نسيت الآن كل شيء، بما في ذلك الذاكرة نفسها. ينبغي

أن أتذكر تلك الأبيات.

(هنالك عدة محاولات فاشلة لكتابة القصيدة، ولكن تم التشطيب على كل شيء، وإن كان بالإمكان قراءة الأبيات التالية:

الدموع التي على هذا القبر

تنسكب اليوم وستنسكب

هي من أجلك ، ولو أنها من دون ثمرة...

إلى أن تغلق تلك الليلة اللامنتهية

عيني اللتين رآتاك

تاركتين إياي مع آخرين يرونك).

الصفحة ٩

لا أعرف لماذا أدون كل شيء في هذا الدفتر؟ غير أني سعيد بأني أحضرته معي. لو كان معي أحد لكان بإمكاني أن أتحدث معه، تتملكني لذة مرضية عند تخيلي أن أحدا ما سيقرأ ما أكتب حينما سيتم العثور علينا ميتين أنا والطفل. وضعت شاهدا من حجر على قبر إلينا لتكون هناك ثلاث حالات مثيرة لتأنيب الضمير، وإن كان وقت الشفقة حقيقة قد ولى. البرد قارس. قريبا سينزل الثلج وستسد جميع الطرق المؤدية إلى هذه المرجة. سيكون لديّ فصل الشتاء بأكمله لأقرر أي ميتة سأموت. أجل، أظن أن زمن الشفقة قد ولّى.

الصفحة ١٠

(سلسلة من الصور مرسومة بشكل سيئ، ولكن يبدو بوضوح

أنها لوجوه، ومن بينها يبدو ثلاث مرات وجه طفل، ومرتين وجه امرأة - المرأة نفسها في الحالتين معا - ووجوه مختلفة لعجائز من الجنسين، بعضهم بطاقية، وبعضهم الآخر بمنديل مربوط على العنق وكلب، هذا الأخير مرسوم بأكمله. تحت كل هذه الرسوم كتبت جملة: «أين ترقدون؟»).

البقرة المريضة تخور وتخور، ولم تعد تعطي حليبا. لم أتجرأ على قتلها بعد لأنني أنتظر أن تتشكل قطع ثلج لتخزينها. هناك حطب كثير وسأتمكن من تأمين غذاء للأخرى إذا ما اجتثث عشبا من تحت الثلج. فقط يقلقني القلم. لديّ قلم واحد وأرغب في أن أكتب ما هو ضروري لكي يعرف من سيلقانا في فصل الربيع على أي موتى عثر.

(معتمدة حروف التاج ومتشبهة بحروف المطبعة كتبت هذه الجملة: «أنا شاعر من دون أبيات»).

الصفحة ١١

لم يتوقف الثلج عن التساقط اليوم. من المفروض أن تكون هذه الجبال إقامة لكل فصول السنة.

مازال الطفل على قيد الحياة والثلج من حولنا كأنه كفن. لدينا ما يكفي من لحم البقرة الميتة التي أبقيت جزءا منها مدخنا كما أن فصل الشتاء سيحفظها من التعفن. لحسن الحظ لدينا ما يكفي من الحليب بفضل البقرة الحية التي تتقاسم معنا الآن المأوى وتمنحنا دفئا. لازالت البطاطس الحلوة التي سرقناها من بيرلونيس في حالة جيدة بفعل الثلج ويبدو

أن الطفل يجد مذاقها لذيذا إذا ما أخذنا في عين الاعتبار الشراهة التي يتناول بها الحساء الذي أعده له. من المدهش كيف أن الطفل بدأ يحتل الفضاء تدريجيا. أتذكر حينما كان عبارة عن شيء غريب، شيء ما كان ينبغي له أن يكون هناك. الآن، الكوخ بأكمله يدور حوله، كأنه هو المركز. في الأيام المشمسة، التي هي أيام قليلة، يعكس فراشنا الضوء كأنه مرآة، ويتجمع الصمت كله حول الأصوات التي يبثها الطفل باستمرار، بما في ذلك صوت بكائه حينما يفاجأ أن هنالك قدما عارية تطير في الهواء أو بقرة ذابلة ومستكينة، في حين أن من المفترض أن يوجد منزل يحضن أسرة. يضع تنفسه الوديع والمدوزن حدا للشعور بالوحدة الذي لولاه لتمكن مني.

الصفحة ١٢

عثرت على عنزة برية أكل الذئاب نصفها. مازالت هنالك وفرة من الطعام واليوم سنأكل من بقايا العنزة. باستعمال العظام والأحشاء تمكنت من طهي حساء خفيف يقبل عليه الطفل بشكل جيد.

(هنا يقع تحول دال في نوعية الخط. برغم الحفاظ على دقة الكتابة، فإن الخطوط تبدو كأنها كتبت باستعجال، أو على الأقل بتردد. لا بد أن وقتا طويلا قد مر).

هل سيتعرف عليّ والدي إذا ما رأياني؟ لا أستطيع أن أرى نفسي لكنني أشعر بأنني متسخ وبئيس،لأنني في الحقيقة أصبحت ابن هذه الحرب التي كانا يريدان تجاهلها لكنها غمرت

بالخوف إسطبلاتهما وبقراتهما الجائعة وأراضيهما المزروعة. أتذكر قريتي الساكنة والفقيرة التي لا تبالي بأي شيء باستثناء الخوف الذي أغلق عينيها عندما قتل السيد سيرفاندو، معلمي، وأحرقت جميع كتبه، وإلى الأبد، نفي جميع الشعراء الذين كان يستظهر أشعارهم عن ظهر قلب.

لقد هزمت. لكن كان بإمكاني أن أنتصر. هل سيحتل آخر مكاني؟ سأحكي لابني، الذي ينظر إلي كأنه يفهمني، أنني ما كنت لأترك أعدائي يهربون دون حماية، وما كنت لأحكم على أي كان فقط لأنه شاعر. بقلم وورقة انطلقت إلى ساحة المعركة ومن جسدي خرجت كلماتي متلاحقة مواسية الجرحى، ومن المواساة التي كنت أصور خرج جنرالات متوحشون، اعتبروا أنه من الطبيعي وجود جرحى. جرحى، جنرالات، جنرالات، جرحى، وأنا في الوسط بشعري. متواطئ. وبالإضافة إلى ذلك، هناك الموتى.

الصفحة ١٣

(هنالك جملة لحقها تشطيب، ولذلك فهي غير مقروءة. كتب نص هذه الصفحة حول حدود يد طفل. على الأرجح، يد الطفل كانت له بمنزلة خطاطة. ومع ذلك فقد كتب فوقها).

مر الوقت ولن أعرف كيف أحدثكم عن الأيام لأنها تتشابه إلى درجة أنني أتعجب أن الطفل يكبر. أعيد قراءة دفتري وأرى أنني لم أعد حيث كنت. وإذا ما فقدت القدرة على الغضب، ما الذي سيتبقى لي؟ فصل الشتاء هو علبة مغلقة تتدافع

فيهـا عواصـف الثلج، وهذه الجبال مازالت تبدو أنها المكان الذي تقضي فيه فصول الشـتاء فصل الشـتاء. أصبح حزني أقوى من جـراء البرد. فقط أشـعر بالخوف الذي طالما خشـيته. أخاف أن يمـرض الطفـل، أخـاف أن تموت البقـرة التي بالـكاد أتمكن من تغذيتهـا بقطع جذور النباتات القليلـة التي فاجأها الثلج وهي لازالت حية. أخاف أن أسقط مريضا. أخاف أن يكتشف أحد أننا هنـا في أعلى الجبل. أخاف من كل هـذا الخوف. ولكـن الطـفل لا علم له بذلك. إلينا!

تصـرخ الريح عبر الجبال في الليالي مصدرة أنينا يكاد يكون إنسانيا، كأنها تعلمنا، أنا والطفل، ما ينبغي أن تكون عليه شكوى البشـر. لحسـن الحظ، هـذا المرج يتحمل بشـكل جيـد مرور كل العواصف.

الصفحة ١٤

اليـوم قتلـت ذئبا! جـاءت أربعة ذئاب تطوف حـول الكوخ. في البداية، تملكني الخوف لأن حاجتها إلى الأكل تكسـبها شراسـة تكاد تكون إنسانية، ثم فيما بعد فكرت أنها قد تكون مصدر غذاء. لما بدأ الذئب الأكبر حجما يحك الباب فتحت شقة الباب بعناية وبقدر كاف لكي يدخل رأسه ثم ضغطت. وبالفأس التي أستعمل كمرتاج وجهت له ضربة جعلت شـراهته تسـيل مع دمه. سـآكله وسأهيئ بأحشائه طعاما يناسب الطفل. هذا أمر جيد. غير أني عدت لأتعايش مجددا مع رائحة الدم، عدت إلى سماع أزيز الموت، رأيت مرة أخرى لون الضحايا. وهذا أمر سيئ.

(في هذه الصفحة، هناك رسم يمثل هيئة ذئب مع طفل يعود القهقـرى، حالتهما معا منشـرحة، وقد ارتفعـا فوق حقل مزهر كأنهما يطيران).

الصفحة ١٥

قال ذئب لطفل إنه بلحمه الفتي
سيقضي فصل الشتاء
قال الطفل للذئب إنه سيأكل فقط رجلا واحدة
وبالنظر إلى صغر سنه
فسيحتاج قريبا أن يخشاه الآخرون أكثر
إذ ستأتي اللحظة
التـي، برغم عرجه، سـيحتاج فيها إلـى أن يتغذى بلحم ذئب مشوي.
تبادلا النظرات وشعرا بحزن عارم
لاضطرارهما أن يسيء أحدهما إلى الآخر
إلى درجة أنهما قررا أن يعيدا المشهد
متجنبين الخديعة المتمثلة
في أن يكون أمرا ضروريا على الدوام،
لكي يعيش شخصان يتحابان بغض النظر عن عواطفهما،
أن يعيش أحدهما ويموت الآخر
(أما الخلاصة)
كلاهما مات من الجوع
(تحـت هـذه الأبيـات كان هنالـك توزيـع موسـيقي لا يمكـن

عزفه. كثيرون هم التقنيون الذين حاولوا فك شفرة هذا التوزيع المحتمل، ولكن لا أحد تمكن من ذلك).

الصفحة ١٦

السماء تثلج. السماء تثلج. السماء تثلج. بفعل الوهن المتمكن مني، تتزايد الصعوبة التي أشعر بها حينما أقطع الحطب قصد تدفئة الكوخ حيث نعيش، أنا والبقرة والطفل. غير أن الطفل، الذي لم أختر له بعد اسما، يتمتع بحيوية مدهشة. يصدر أصواتا من حنجرته حينما يكون مستيقظا، كأنه يغرد. من جهة، يسرني أن يكون مستيقظا لأن ارتباطه الكلي بي يمنحني أهمية لم يمنحني إياها أحد باستثناء إلينا. ومن جهة أخرى، تشلني عيناه وهما تكادان تتجاوزان محجريهما إلى أن تبدوا ضخمتين مع خدين متهدلين. إنه نحيف جدا، والبقرة أيضا نحيفة جدا، وإن كانت لازالت تعطي حليبا كافيا له ولي. وأنا جد نحيف ولا أستطيع حراكا.

لا أدري في أي شهر نحن؟ هل حان أوان احتفالات رأس السنة؟

اليوم، وأنا أتتبع أثر حيوان، نزلت إلى أسفل الجبل في اتجاه سوطري، ورأيت مجموعة من قاطعي الخشب في السهل. شعرت في داخلي بخوف مألوف وكثيف يحيى من جديد. الآن، أنا فخور بخوفي، ففي نهاية هذه الحرب الوحشية، رأيت عددا كبيرا من الناس يموتون بسبب تهورهم. إذا بقيت هنا سنموت أنا والبقرة والطفل، وإذا نزلنا إلى السهل، سنموت أنا والبقرة والطفل.

الصفحة ١٧

لقد فكرت مليا في الأمر، لكنني لا أريد أن أمنحهم نشوة النصر الأخيرة. قد يكون من العدل أن أموت أنا؛ لأنني لست سوى شاعر رديء غنى للحياة في المتاريس حيث كان يسكن الموت. لكن أن يموت الطفل فذاك أمر ضروري فقط. فمن ذا الذي سوف يحدثه عن لون شعر أمه؟ عن ابتسامتها؟ عن الرشاقة التي كانت تتجنب بها الريح حتى لا تمسها؟ من سيطلب عفوه لأنه أتى به إلى الحياة؟ وإذا ما بقيت حيا، فما الذي سأحكيه له عن نفسي؟ هل أقول له إن كافيديس بلدة معلقة على جبل له رائحة الحر والحطب، وأنه كان لدي معلم يستظهر أشعارا لغونغورا وماتشادو، وأنه كان لدي أبوان لم يستطيعا إقناعي بالبقاء إلى جانب إسطبلهما، وأنني لا أعرف ما كنت أبحث عنه بمدريد في عز الحرب، منشد أشعار بين طلقات الرصاص؟ هذا هو الأمر يا بني! كنت أريد أن أكون منشد أشعار بين الرصاص!

(خط صارم وعميق يميز هذه الجملة الأخيرة إلى حد أنه ثقب الدفتر ذا المشمع الأسود).

الصفحة ١٨

أنا عاجز عن مواصلة تغذية البقرة، والبقرة عاجزة عن مواصلة تغذية الطفل. أحفر تحت الثلج بحثا عن قذى العشب الذي يزداد بمرور الأيام ضعفا وندرة. عثرت على عقدة في جذور البندق المتيبس، وباستعمالها أتمكن من إعداد عجينة لا مذاق لها، غير أنه بعد أن أغليها وأخلطها، أعطيها إلى البقرة وإلى

الطفـل. لا أدري إن كانت تصلـح غذاء، لكني أعطيه ريقي ويظل علـى قيد الحياة. وعلـى الرغم من أنه شـديد الضعف، فإنه بدأ يحـاول التحرك. لكن تنقصه القوة الكافية لذلك. يتقوس وهو يسـتند فقـط على الـرأس والرجلين. لكـن، لا يلبـث أن يتهاوى بعد ذلك على الفور. لو كان بإمكاني، لنزلت إلى السـفح لأطلب غـذاء. ولكن من المسـتحيل الخـروج من هذه الجبـال. أنا ولدت ببلـدة لا تعـرف الثلـج، ولا أحـد علمني إزالـة الثلـج الصامت. عندمـا أبتعد عـن الكوخ أكثر مـن المعتاد، أغـرق حتى الخاصرة وأتأخر طويلا في الخروج من المصيدة البيضاء. ما تركته الذئاب من جثة البقرة الميتة هو من الصلابة، بحيث إنه ولو باستعمالي الفـأس، لا أتمكن من قطع أي شـيء، بحيـث لا أتمكن، حتى مع اسـتخدامي الفأس، من قطع أي شـيء. لحسـن الحـظ، البقرة مكسـوة بالثلـج، والبارحة حاولـت أن أخرجها مـن تحت الأرض علني أعثر على شيء ضامر في أحشائها.

الصفحة ١٩

اكتشـفت حيوانـا، نصفـه لحم ممـزق، ونصفه الآخـر هيكل عظمـي، وعنقـه ممـدود كأنه كان يسـعى إلـى أن يهـرب من دون جدوى. تشـكل ضلوعـه المتبقية القليلة وعاء يبـدو كأنه لحفظ الروح. بيد أن روحه أيضا أكلتها الذئاب.

(هنا يوجد رسـم يصور رأس بقرة بشـكل فني، في طول سهم، ويرسـم أخاديـد فـي الهواء. وتحتـه يوجد تعليق: أيـن يمكن أن توجد جثة البقر؟).

أنا على استعداد لقتل البقرة الثانية بما أنه مازال فيها بعض اللحم. لكني لن أتمكن من حفظها في حالة جيدة. لو تركتها حيث يوجد الثلج، ستنتهي الذئاب التي تتربص بنا بأن تشم رائحتها. داخل الكوخ، أتمكن من الحفاظ على درجة حرارة ستؤدي إلى تعفن ما تبقى من جسمها. هل ستظن البقرة أنني أنقذتها من الذئاب أم ستعرف أن الذئاب هي التي تحول دونها ودون الفأس؟ لعلها عرفت الحقيقة لهذا لم تعد تمنح حليبا.

(هنا توجد سلسلة أوراق، تسع تحديدا، وقد قطعت في الوقت نفسه لأن الرسم نفسه الممزق يتكرر فيها جميعها. في ترقيم الصفحات الذي يأتي بعد الآن، لم نأخذ بعين الاعتبار الأوراق الناقصة من الدفتر).

الصفحة ٢٠

الطفل مريض. يكاد لا يتحرك. قتلت البقرة، وأنا الآن أعطيه دمها. غير أنه يصعب عليه أن يبتلع أي شيء. لقد غليت قطعا من اللحم وعظاما إلى أن أصبح المرق ثخينا وغامق اللون. أعطيه إياه ممزوجا بماء الثلج. كل شيء له، من جديد، رائحة الموت.

إنه جد ساخن. الآن أكتب وهو نائم في حضني. كم أحبه! غنيت له أغنية حزينة لفيديريكو:

بكاء جمجمة
تنتظر قبلة من ذهب

(في الخارج ريح قاتمة
ونجوم عكرة)

لم أعد أتذكر الأشعار التي كنت أنشدها للجنود. تحت وقع الجوع، أول ما يموت هو الذاكرة. لا أتمكن من كتابة ولا بيت واحد، بيد أن في ذهني تتردد مئات الأغنيات لتنويم ابني. كلها تشترك في الكلمة ذاتها: إلينا!

اليوم قبلته. قبلته لأول مرة. نسيت شفتي من فرط عدم استعمالهما. ترى ما الذي شعر به عند تماسه الأول مع البرد؟ إنه لأمر فظيع، لكن عمره الآن ثلاثة أو أربعة أشهر ولا أحد قبله قبل اليوم. أنا وهو نعرف كم يطول الزمن من دون قبلة، والآن، من المحتمل أنه لم يتبق لنا ما يكفي من الوقت لنعوض أنفسنا عما فات. الخوف والبرد والجوع والغيظ تبعد الحنان الذي يعود فقط، كأنه غراب، عندما يشم رائحة الحب والموت. غير أنه الآن في وضعية حيرة إذ إنه يشم رائحة الشيئين معا. هل هناك حنان أبيض وحنان أسود؟ إلينا، أي لون كان لحنانك؟ لم أعد أتذكر. ولا أعرف حتى إن كان ما أشعر به هو حزن. ولكني قبلت الطفل من دون أن أحاول أخذ مكانك.

الصفحة ٢١

رائحة نتنة تسيطر على الجو. غير أنني أتذكر فقط رائحة الشمار.

(بحروف بارزة، بارزة جدا، غطت هذه الجملة ما تبقى من الصفحة المكتوبة بخط غير دقيق: آه، من دونك لا يوجد أي شيء).

الصفحة ٢٢

لـم أعثـر على قلمـي (القليل مما تبقى منـه) وظللت لعدة أيام عاجزا عن كتابة أي شيء. هذا الوضع أيضا هو بمنزلة صمت، هذا الوضع أيضا هو بمنزلة كمامة. ولكني اليوم عثرت على القلم تحت كومـة مـن الحطب، وتملكني إحسـاس بأني اسـتعدت ملكة الكلام. لا أتبين حقيقة مشـاعري ما لم أعمد إلى تقييدها، وذلك على ما يبدو له ارتباط بتربيتي القروية. اليوم قضيت وقتا طويلا متسلقا جذعـا مـن دون أوراق محاولا العثور على بصمات حيوان قد يصلح لنـا غذاء. رأيـت منظرا طبيعيـا أبيض لا تتقاطـع فيه الخطوط، فسيحا، لا متناهيا، تهزهزه ريح عنيدة وباردة مع أزيز لا يقوم سوى بتثبيت الصمت المهيمن. وبينما كنت مسـتغرقا في تأملي، تملكني شعور لم أستطع تحديده، شيء لم أتبين حتى إن كان طيبا أو سيئا. الآن، بما أنني عثرت على قلمي، أعرف ما كان: الوحدة.

لديّ شـعور بأن كل شـيء سـينتهي سـاعة انتهاء الدفتر. لذا أكتـب فقط خلال المسـاءات. يبـدو أن قلمي هو الآخر قد خسـر الحرب، وعلى الأرجح، ستكون الكلمة الأخيرة التي سوف أكتبها هي «سوداوية».

الصفحة ٢٣

الطفـل مـات وسأسـميه رفائيـل، مثل أبـي. لم يكـن لدي ما يكفـي من الـدفء لأبقيه حيا. تعلم من أمه أن يموت من دون أن يبالـغ في إظهار عواطفه. وهـذا الصباح لم يرغب في أن ينصت إلى كلمات عزائي.

(فيما تبقى من الصفحة، بخط معتنى به بدرجة أكبر مقارنة بما كتب لحد الساعة، وبدرجة عالية من الإتقان، يكرر اسم «رفائيل»، «رفائيل»، «رفائيل»، ثلاثا وستين مرة. حرف الراء في اسم رافائيل هو دوما زخرفة موضوعة عموديا على شكل أزهار تبتدئ على الشمال وتنفتح على اليمين، يغلفها خط أكرش، راسمة تقويسة تلتقي مع الخط العمودي في نصف العلو تقريبا لتعود إلى الابتعاد مثل تنورة منشاة وتتهاوى نحو الأسفل في خط سرعان ما يختفي. إنه حرف «ر» إنجليزي وقوطي في آن واحد.

الصفحة ٢٤

(من جديد يتكرر اسم «رفائيل»، «رفائيل» اثنين وستين مرة).

الصفحة ٢٥

(يكرر اسم «رفائيل» بنوعية الخط نفسها ولكن بمقاس أصغر مائة وتسع عشر مرة).

الصفحة ٢٦

(تم تغيير القلم، ومن المحتمل جدا أنه تم تكملة النص بجمرة منطفئة أوبشيء ما مشابه. من الصعب قراءة ما تم تخطيطه، إذ بعد كتابته، مرر المؤلف يده فوقه كأنه حاول أن يمحوه. نظن، إذن، أننا قرأنا بشكل صحيح ما كتب، وإذ ننقله فإننا نسجل هذه التحفظات).

«شرذمة لئيمة من طيور محلقة».

(تعليق المحرر: العام ١٩٥٤، ذهبت إلى قرية بإقليم سانتاندير اسمها كافيديس. هي قرية معلقة على الجبل وتعمها رائحة البحر القريب، وإن كان لا يمكن رؤيته لأنها تطل على داخل السهل. سألت هنا وهناك وعرفت أن المعلم، الذي كانوا يدعونه السيد سيرفاندو، أعدم العام ١٩٣٧ بتهمة أنه جمهوري، وأن أنجب تلاميذه ذا الست عشرة سنة من العمر، والذي كان يعشق الشعر إلى حد الهوس، هرب في السنة نفسها إلى منطقة تحت نفوذ الجمهورية ليلتحق بالجيش الذي خسر الحرب. لا والديه رفائيل وفيليسا، اللذين ماتا بعد انتهاء الحرب، ولا أحد من القرية سمعوا عنه خبرا. كانت له سمعة مجنون لأنه يكتب وينشد أشعارا. كان اسمه أولاليو صيبايوس سواريث. في حال ما إذا كان هو صاحب هذه الكراسة، فقد كتبها وعمره ثماني عشرة سنة، ولا أظنها سنا تليق بتحمل كل هذا العذاب).

الهزيمة الثالثة: ١٩٤١
أو لغة الأموات

بارتباك يليق بمن يلقي تعويذة يعتقد أنها تقي من السحر، رد خوان صينرا، مدرس الكمان الجهير، بالإيجاب من دون أن يكون واعيا بأنّ تلك الإجابة أنقذت حياته وإن بشكل مؤقت.

سأل العقيد إيمار، وهو يتخلص من خموله، وقد شرع في الاقتراب من المتهم يقوده شيء شبيه باهتمام عالم حشرات حين تركيزه على حركة شيء متناهي الصغر.

- هل حقيقة تعرفت عليه؟

- نعم.

قصفه العقيد بصوت حاد:

- نعم سيدي العقيد!

- نعم سيدي العقيد.

كان خوان صينرا واقفا منذ الفجر، مرتديا ثوب عمل أزرق وقميصا باليا يسمح بدخول الهواء وتدفق الخوف. هزاله المفرط، وتفاحة آدم التي كانت تقفز مرتعبة كلما بلع ريقه، وخمول همته الذي كان يجعل كتفيه يتقوسان إلى درجة تجعل منه شيئا مقببا، حولته إلى ندبة إنسان عاجز عن أن يركز نظره

من دون أن يشعر بالغثيان.

أين؟

بسجن بورلبير.

كان العقيد إيمار قصير القامة. تطل يداه من حواشي الكم بقدر يكفي لكي يقبض بشكل دائم على سيجارة مشتعلة على طرفي سبابته وبنصره اللذين كانا ينتهيان بأظافر ذات لون رمادي متسخ كأنها مشيطة بفعل حرارة التبغ. كان عنق ضامر، كأنه لطائر مشؤوم، يخرج من التلبيب الذي يتوج سترته الفضفاضة والبالية إلى حد لا يمكن تصور أنها لمحارب. على الرغم من ذلك، وكمقابل يفيض حيوية إزاء تلك الشيخوخة، زين وجهه شارب ناعم أفقي، مواز بشكل تام للأرض، وهو إن لم يكن يكسبه ملمحا شرسا، فعلى الأقل كان يحول دونه ودون الابتسام. بالإضافة إلى أوسمة، مختلف أنواع الأوسمة التي كانت تشكل درعا واقية لصدره أكثر مما تشكل تشريفا.

امر بشكل قاطع:

- بسجن «بورليير»، سيدي العقيد!

بسجن «بورليير»، سيدي العقيد!

متى؟

نقلوه من مقر المخابرات السوفييتية بشامبيري في مايو ١٩٣٨. سيدي العقيد!

ومع أن هيئة المحكمة كانت مشكلة من ثلاثة عسكريين، فإن القبطان مارتينيث، والفارس ريوبو توقفا عن طرح الأسئلة واتكآ

علـى ظهري كرسـييهما تاركين بهذه الحركة لرئيسـهما المباشـر فرصة توجيه الوقائع كما يريد.

إلـى جانـب المتهم، الذي ما من شـيء كان يبقيه واقفا سـوى شعوره بالخوف، نجد الملازم الأول الونصو الذي كان ينجز بتعب ظاهر مهام سكرتير المحكمة، والذي حينما لفتت انتباهه إجابات المتهم، أوقف بشـكل مؤقت رسوماته المتداخلة الألوان التي تمثل أعلاما موضوعة بعضها فوق بعض مشـكلة حقلا لامتناهيا من الرايـات المنثنية كأن الريح لا وجود لها. كان جالسـا على طاولة مدرسـية، وربمـا لذلك السـبب اتخذ هيئة تلميـذ مجتهد. نظر إلى العقيد إيمار، ولما لم تلتق عيناه بعيني هذا الأخير، استغرق مباشـرة فـي عملية منـح ظلال تتوج قمة آخر علم مرسـوم. كان أبهق وبدينا، خاصيتان متنافرتان في العادة، ولكنهما التقتا في هذه الحالة لمنح الملازم الأول شكلا شبيها بدمية من ثلج.

وأنت اسمك هو....

ذكر خوان صينرا اسمه، وتحاشى الإشارة إلى رتبته، وشرح أنه كان ينتمي إلى هيئة المرضين بمصلحة المسجونين. لم يقل كل الحقيقة، لكنه ما كان يكذب. «سنة ١٩٣٦ كنت أدرس بالمعهد في السنة الثالثة بكلية الطب، لذا أسندوا إلي هذه المصلحة. سيدي العقيد!».

غير أن العقيد لم يكن يعيره كبير اهتمام لأنه كان يبحث في اللائحـة التـي تحت عينيه عن اسـم المتهم. لم يكـن يقصد ربح الوقـت، لـم يكن بحاجة إلى ذلك، لكنه كان يريد أن يعرف شـيئا إضافيـا عن هـذا المهزوم الذي كان سـيحكم عليـه بالإعدام وهو

الذي سبق له أن تعرف على ابنه. خوان صينرا ساما، ماسوني، أشرف على السجن الشعبي، شيوعي، أعزب، ومجرم حرب. وُلِد بميرافلوريس دي لا سييرا بمدريد سنة ١٩٠٦. ابن ريكاردو صينرا، ماسوني، وسيرفاندا ساما، متوفاة.

وتحدثت إليه؟

نعم، في عدة مناسبات كانت آخرها اليوم الذي أعدم فيه.

ألحّ العقيد برغم توتره : سيدي العقيد!

في عدة مناسبات سيدي العقيد!

حينذاك اتضحت أفكار إيمار المضطربة مشعة وواخزة مثل قطع فخار مهشم. كل صباح، لما كانت زوجته فيوليتا تساعده على لبس حذائه والرداء الباهت اللون فوق كتفيها المرتخيتين، كانت تكرر على مسمعه «تذكر ميغيل الصغير». ولما كان مساعده ينقله بالدراجة النارية ذات المقعدين إلى «محكمة مواجهة الماسونية والشيوعية» التي يرأسها، كان يفكر في ميغيل الصغير. كيف له أن ينسى ميغيل الصغير؟ البطل المنتمي إلى سلالته الذي مات فقط لكي يتم الثأر له.

كانت عادة تقصير إجراءات المحاكمة تحول دون توقفه عند بعض الأمور الدقيقة، ذلك أن العدالة العسكرية تجد لنفسها حلا من دون ألوان، وربما لذلك، بدت عليه علامات الخجل حينما أخبر السجين بأن ميغيل إيمار كان ابنه.

وعمّ تحدث؟

عنكم سيدي العقيد!

عن جنابكم سيدي العقيد! صحح مغتاظا العسكري المرتخي ليحسم في كونه كان قاضيا قبل أن يكون أبا.

كرر صينرا بوداعة:

- عن جنابكم سيدي العقيد!

توقف الزمن للحظات، وظل الأعضاء الثلاثة للمحكمة من دون حراك، أسرى شرارة صمت وسكينة لم يشوش عليها سوى ارتعاشة خفيفة لذقن إيمار. كانت تفاحة آدم تعلو وتنزل كلما احتاج خوان لريق يخفف به جفاف فمه، وقد كانت الشيء الوحيد الذي يتحرك في تلك القاعة.

وعن الوطن، هل تحدث؟ هل تحدث عن إسبانيا؟

سأل فقط ليخفي التوتر الذي كان يصعد من حنجرته، ويجعل ذاك الصوت السلطوي رقيقا بفعل الحشرجات التي تسبق الموت.

شعر صينرا بالخوف حينما أدرج بعض الحقيقة في إجاباته، كأن مثل هذا التقابل يمكن أن يشي به، غير أنه أكد أنه لم يتحدث عن إسبانيا. واستعاد الزمن مسيره: عاد السكرتير الأبهق لرسم الأعلام، ونظر أعضاء المحكمة بعضهم إلى بعض بتواطؤ متكئين على سندات كراسيهم مانحين لأنفسهم بضع لحظات للتفكير. كانوا قد استجوبوا وحكموا بالموت على مئات من أعداء الوطن الذين سئلوا جميعا في لحظة من اللحظات إن كانوا قد تعرفوا على ميغيل إيمار. وكانت الإجابة هي دوما نفسها. والآن، وبشكل فجائي، ما كانوا يعرفون كيف عليهم أن يتعاملوا مع إجابة خوان صينرا.

قاطعه الفارس ريوبو، الذي استحق عدة أوسمة رفيعة، قائلا:

اسمع أنت، أيها الشيوعي الحقير، هل تريد تقديم تفسيرات أم سنرسلك حالا إلى مقبرة ألمودينا؟

لينتهـي بتوجيهـه نظرة خنوع نحو العقيـد بحثا عن تزكية تلقاها بشكل ضمني في صمت سلطوي ومرتبك.

لم يعد السـكرتير المعتد بنفسه يرسم أعلاما لكنه ظل ينظر إلـى الأوراق التي كان يضعها على اللوح المائل لمكتبه. وكان خوان صينـرا هـو الآخر في حاجة إلى إعادة بنـاء ذكرى دون ذاكرة، فلا الضعـف ولا الخـوف تمكنـا من جعله ينسـى القصـة الحقيقية لميغيل إيمار.

كانـت صـورة للجنـرال فرانكـو بقبعة عسـكرية وهو يبتسـم بوحشـية معلقـة بالجـدار الموجـود في عمـق القاعة إلـى جانب صليب من خشب. وتلك القاعة الفارغة،التي يبدو أنها كانت في الأصل قسـما بمدرسـة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار وجود السبورة الضخمة المغطية لكل الحائط في العمق، كانت تمكن من سـماع حركيـة وضجيـج وأصداء غيـر متوقفة لصفق الأبـواب ولأوامر صارمـة وخطوات مسـرعة. وفـي المقابل، كان الصمت يسـود في الداخـل. وظل الجنود الثلاثـة المكلفون بالحراسـة مثل تماثيل في قاع القسـم، لا تماثيل حربية، بل تجمدوا بفعل التعب، ومن دون أن يكون لوجودهم أي بعد ملحمي.

تذكـر خـوان عدة أشـياء دفعة واحـدة، وأحس بخـوف كان من القوة بحيث لم يقدر معه أن يظل منتصب القامة. أسند يده على طاولة السكرتير الذي كان على يمينه، محاولا ألا يستسلم للدوار، ولكن دفعة من يد راسم الأعلام جعلته يفقد توازنه ويسقط على جنبـه فـوق الدفتر. تلقى ضربـة أخرى، هذه المرة فـي الظهر، في الوقت الذي كان الأبهق يصرخ فيه: أنت! قف يا ابن العاهرة!

كان بإمكانه أن يستجيب بسرعة لكنه استرجع توازنه بصعوبة مؤلمة. «حاضر سيدي!»، بدا له أن يقول. ترك نفسه يسقط بنعومة جفون عين شارب الأثير، وظل ممدا على الأرض مطويا على نفسه مثل نبتة الخيزران.

كان البرد قاسيا.

من جهة بفعل الجوع، ومن جهة بفعل الألم، ومن جهة بفعل الخوف، ومن جهة بفعل وضعيته كمهزوم، كل ذلك ترك خوان صينرا في حالة إغماء جزئي تخترقها الحركات لا الكلمات. جره رجلان من رجليه نحو مكان رطب ومظلم، حيث كان يوجد أشخاص آخرون لا يتحركون. انغلق الباب محدثا ضجيجا. وقبل أن يفقد الوعي بشكل تام، مرر أحدهم ذراعا عبر ظهره وسأله: خوان، ما الذي فعلوه بك؟ أحس بنفسه محميا لما سمع من يناديه باسمه وترك اللاوعي يلفه.

حين نقلوه ليلا إلى السجن بمعية قافلة من المعتقلين، لم يعرف لماذا تم إرسال الجميع إلى الدهليز الرابع في حين أرسل هو إلى الدهليز الثاني. كانت للسجن تراتبية مكرسة بشكل جيد: في الدهليز الثاني كان ينتظر الذين سيحكم عليهم بالإعدام، وفي الدهليز الرابع كان الذين تم الحكم عليهم يعدون الدقائق.

من ضمن ما يقارب ثلاثمائة رجل مكدسين بالممر الذي تم تحويله إلى زنزانة جماعية، أكثر من النصف أحاط به عندما دخل، وبادروه بأسئلة تسعى إلى تفسير ما لا يفسر: هل أطلقوا سراحك؟ ما الذي جرى لك؟ كيف تمكنت من

الحصول على حريتك؟ ما الذي فعلوه بك...؟ كان من المفروض أن يكون هنالك سبب بالغ الوجاهة يسمح بالعودة إلى الدهليز الثاني.

لا أعرف، فقدت وعيي وأحضروني هنا مرة ثانية.

هل عذبوك؟

السبب هو الخوف على ما أظن.

لو كان لديه نفس كاف، لحاول تفسير ما حدث، لكنه لم يتغلب على الخجل والتزم الصمت. في مواجهة أمر لا تفسير له، تكون المجازفة بتقديم سبب معقول مرادفا للكذب؛ لأن الذين يحتاجون إلى تدبير الحقائق من عادتهم أن يسموا الغموض كذبا. لهذا التزم الصمت حتى يتمكن إدواردو لوبث من ترتيب الوقائع من دون حاجة إلى فهمها.

كان إدواردو لوبث عضوا بالمكتب السياسي للحزب الشيوعي، وجعله عمله منسقا للثورة بمدريد يحظى بشهرة لا بأس بها خلال الأشهر الأخيرة للحرب. اعتُقل في الجبهة الجنوبية ولم يكن ينتابه أدنى شك فيما يتعلق بالمصير الذي ينتظره. وعلى الرغم من ذلك كان يحاول بكل شجاعة أن ينظم حياة السجناء ويوزع مهام لمساندة أكثرهم يأسا، وعلى الخصوص تقديم تفسير سياسي لآلامهم. لذلك كان يحرص على أن يسود انضباط معين خلال النقاشات الجماعية التي كان هو نفسه يشجعها، ويطلب من الحاصلين على تكوين جيد أن يقدموا عروضا حول مواضيع يمكن أن تثير اهتمام السجناء. وللتخفيف من حدة يأسهم كان يردد فكرة أنهم كانوا هناك لدفاعهم عن شيء عادل. لا أحد كان

يحس بالعزاء لذلك، لكنهم كانوا كلهم ممتنين لوجود شخص يطمح إلى أن تبقى تلك الأرواح حية.

وبما أن إدواردو اعتبر إجاباته مقبولة، اعتبر أولئك الرجال الشاحبون الناحلون المشلولون بفعل البرد هم أيضا أنهم قد أشبعوا فضولهم. يكاد الخوف يفسر كل شيء.

ذهب خوان صينرا ليقبع إلى جوار رفاقه محتفظا بصحفة الألومونيوم على صدره. كانت الإشارة إلى أنه مازال سيأكل مرة أخرى، وهذا أمر أشبه ما يكون بأن يكون المرء حيا. ألم الضربة التي وجهها له الأبهق توزع إلى ما لا نهاية له من الآلام، وبالإضافة إلى ذلك، كانت الذاكرة تضغط عليه بأحزان أخرى بالغة العقم مثل الحنين.

سبق أن كتب لأخيه ليودعه ولم يوجه له أية تحية، وقد ندم على أنه قد فعل ذلك. كانت لديه عدة أشياء يود قولها له، ومع ذلك فإنه اكتفى بالإشارة إلى ذكريات مقتسمة كأن المصدر الوحيد للتواطؤ كان هو الذاكرة. الآن، بعد أن مثل أمام هذه المحكمة الممسوخة، الآن وقد اقترب من الجحيم، عرف أنه قد أخطأ حينما أغفل الحديث عن العواطف.

اشتاق إلى أخيه المراهق، البعيد عن كل هذا، المستعد منذ الآن لتأمل كل هذه الفظاعات وغير المؤهل بعد لإدماجها في حياته.

أصبح الصمت مضاعفا، وكل الأحاديث ذابت في ظلام مملوء بأصداء بعيدة. قبل حلول الفجر، لن تكون هنالك حياة، والحياة كانت تبدأ حينما تتم المناداة على الموت. كان السجناء يعرفون أنه عند الساعة الخامسة صباحا وانطلاقا من الساحة، سينادَى

علـى مجموعة من الأسـماء والألقاب، وسـيصعد المنادَى عليهم على متن شاحنات للذهاب إلى مقبرة لاألمودينا ولن يعودوا أبدا. لكن هذه الأسماء تخص الموجودين بالدهليز الرابع. أما بالنسبة إليهـم، أصحاب الدهليز الثاني، فقد كان هناك إجراء ينقصهم: المثـول أمام العقيد إيمـار ليتلقوا الحكم الذي لا رجعة فيه، مما كان يعني أنه مازال هنالك وقت، والوقت يمر فقط بالنسـبة إلى الأحياء.

عرفـوا بوسـاطة الفارس كابيلان أنه ليـس كل المحكوم عليهم بالإعـدام قـد تم بالفعـل رميهـم بالرصـاص. تدخـلات عائلية، توصيات خاصة، قرارات اعتباطية بالعفو، جعلت عدد من أعدموا يتناقص مع مر الشـهور. وقد شـاع أن عديديـن منهم ذهبوا من الدهليـز الرابـع إلى سـجن ضويسـو أو أوكانيـا أو بورغوس. لذا كانـوا يفكـرون فقط فـي أن الزمن سـيمر، بكل البـطء والعنف اللذيـن يروقان لـه، غير أنه سـيكون هنالك أسـبوع إضافي، يوم إضافـي، بل حتى سـاعة إضافيـة. وهذا هو بالتأكيـد ما جعلهم جميعـا يحاولـون عـدم إثـارة الانتبـاه، وأن يمتزجـوا مـع اللون الرمادي المتسخ لجدران الزنزانة الجماعية.

في الأشـهر الأولى، والبرد ما سكن بعد عظامهم، كان هنالك دومـا أحـد يقـوم باعتلاء قضبـان النافـذة المطلة على السـاحة ويصـرخ: «تعيـش الجمهوريـة! » حينمـا كان أصحـاب الدهليـز الرابع يمتطون الشـاحنات في الفجر. «وداعا أيها الرفيق، وداعا أيهـا الصديق. سـننتقم لكم». غيـر أنه، وبشـكل تدريجي، بدأت هذه الحركات تخفت، أصبحت غامقة والفجر أصبح أكثر قتامة.

في اليوم التالي، لم يستدع خوان صينرا إلى المحكمة. ذهب آخرون ولم يعد أحد. تناول خوان الحساء الدافئ مرتين إضافيتين وساعد شابا لم تنبت لحيته بعد على إزالة القمل بعد أن امتلأ رأسه بالبثور من كثرة الحك. قال له: إذا واصلت بهذه الطريقة ستصبح أصلع. لف الشاب حول رأسه شيئا لم يتبين خوان صينراما هو، ولكنه ابتسم كأن الأمر أدخل عليه سرورا ما. قال له أحدهم إن العريف سانشيز يملك مشطا وشرع بعناية يمشط بيض القمل من شعر الشاب الذي، اعترافا بالجميل، أراه صورة خطيبته.

- إنها مثيرة. أليس كذلك؟ هي من صيكوفيا، ولكنها أتت لتقدم خدماتها بمدريد وها أنت ترى... وقام بحركة بذيئة وحنونة في الوقت نفسه.

لم يتمكنا من مواصلة الحديث لأن أحدهم طلب حضوره قرب الحاجز الموجود بالمدخل. أرجع له عريف أول هرم بفعل الخوف وسقطت أسنانه بفعل الجوع ظرفا مفتوحا بعنوان مكتوب بالقلم. تلك كانت الرسالة التي كتبها خوان إلى أخيه قبل أن يمثل أمام العقيد إيمار. الآن يرجعونها إليه مفتوحة وبتشطيبات.

هذه الرسالة لا يمكن بعثها. وستكون محظوظا لو تمكنت من كتابة رسالة أخرى.

من قال ذلك؟

الفارس كابلان.

فيما عدا «أخي العزيز لويس»، و«تذكرني دائما، أخوك خوان»، تم شطب كل الجمل بقوة، بما فيها تلك التي تتحدث عن البرد

والصحة التي ليست على ما يرام، عن وداعة أمه المتوفاة أو عن أشجار الحور الأسود بمنتزهات ميرافلوريس. لم يكن هنالك حيز لما هو إنساني. لم يكونوا يريدونه أن يودع أحدا.

عاد برفقة الشاب ذي بيضات القمل، علق بفكاهة على خطه، وتابع المهمة التي كانت قد توقفت.

تأمل خوان يديه العاجزتين عن اقتحام ذلك الشعر المملوء بالقمل. الآن قضت تشققات البرد على كل مهارة. هم الآن ماهرون فقط في تسريح الشعر. ومع ذلك حاول أن يكون حنونا ويده تلمس رأس الشاب الذي لم تنبت لحيته والذي لم يقم بأي شيء لتجنب تلك الحركة. تحدثا.

كان يدعى أوخينيو باث. عمره ستة عشر سنة، من مواليد برونيطي. كان خاله مالك الحانة الوحيدة بالقرية حيث كانت تعمل أمه وتتلقى برغم عامل القرابة معاملة مهينة، وهي التي تفانت في التفرغ لمهام المطبخ والتنظيف بالمحل في قرية بمثل تلك الحقارة. لما اندلعت الحرب انتظر أوخينيو أن يعلن خاله انتماءه ليلتحق هو بالطرف الخصم. بهذه الطريقة أعلن ولاءه للجمهورية.

كان له وجه طفل عاجز عن أن يكبر. كأن الظل البئيس لذلك السجن لم يكن له عليه أي تأثير. لم يكن هنالك في وجهه الذي لوحته الشمس أيّ خط مستقيم أو أيّ خط ذو زاوية لأن الصرامة والحزن كانا ممنوعين عليه أيضا. بدينا وذا قامة متوسطة الطول، كان يتحدث دوما ثانيا شفتيه كأنه نادم على قول ما كان يقوله. ولكن الأمر لم يكن كذلك

إذ إن عينيه الزرقاوين كانتا تنظران بتركيز في عين مخاطبه محولا أي تفاهة إلى حقائق بمثل قوة الكلمات. شيء ما له طعم الصداقة والحنان كان يشع من جمله التي كان يزينها، حتما، بتعابير من اختلاقه وببعض التجديفات.

شارك في الحرب بدون مثل عليا كأنه يلعب، وكان همه ألا ينتصر الخصم، ودون أن يتأمل الأسباب التي جعلته يتخذ الموقف الذي اتخذه. وكما هو الأمر في أي لعبة ، طبق القواعد حتى النهاية مطلقا الرصاص باعتباره مقاوما لما دخل عسكر فرانكو مدريد آخذين معهم كل ما وجدوه في طريقهم. من سطوح البنايات كان يضيق الخناق على جيش الخصوم بخطط حاصرت المنتصرين حتى اليوم الثالث للنصر. في الأخير قبضوا عليه، ليس وهو يحارب، بل خارقا وقف إطلاق النار الذي فرضته السلطات الجديدة عندما كان ذاهبا لرؤية خطيبته بباب إحدى العمارات بشارع سلمنكا حيث كانا قد أقاما سرير زوجيتهما المظلم، المنتظم والصامت.

ومع ذلك، فقد كان راضيا عن نفسه إذ استمتع بالتحكم ، خلال ثلاثة أيام، في وضع معايير اللعب عبر تحديده من كان طيبا ومن كان سيئا، فحاكم وأطلق سراح البعض، وحكم وأعدم، متبعا نظاما كان يعتقد أن آخرين هم من اخترعوه.

الآن، وهو في السجن، عرف أن كل ما وقع كان اسمه الحرب، وأنه على الرغم من إتقانه التسلل من أفاريز المنازل وخفته لحظة القفز من سطح إلى آخر وانتشائه كلما أطلق رصاصا على منافس له، فقد انهزم. وما كان يحز في نفسه أكثر هو أن

خطيبتـه المنتمية إلى صيكوفيا كانت حاملا. «بما أنها سـاذجة ، ربما ستظن أني على علاقة مع امرأة أخرى...» أنهى بشجن.

عـرف خـوان أنـه فـي ظـروف أخـرى كان سـيعزه. الآن كان يكتفـي بـأن يقدم له رفقته الشـبيهة بشـيء ناعم وأساسـي إزاء لزوجة الحزن الجماعي. لم يكن أوخينيو يعتبر الخصوم أعداء. كان يعتقـد أنـه بمـا أن الهزيمة كانت من نصيبه هـذه المرة، فإنه سينتصر في فرصة قادمة. كان الأمر كأنه لعبة حظ، دون انتقام ودون مدانين. «لا أتبرم من الخسارة مثل كل هؤلاء».

فـي اليـوم التالـي، كان خـوان الأول علـى اللائحـة. كان مـن العسـير الحصـول علـى ورق وقلـم، إلى درجة أنه لـم يتمكن من توديع أخيه. هذه المرة بدا له الموت متسرعا.

صحبـة الذيـن تمـت المنـاداة عليهـم شـكل صفـا ينـزل نحو السـاحة حيث تقف شـاحنة صغيرة لتنقلهم إلى محكمة العقيد إيمار. من مروا قبله عادوا كلهم محكومين بالإعدام. لما جاء دوره، ذهب خوان صينرا عن طيب خاطر إلى موعده مع المحكمة. كيف يتـم قتـل ميت؟ هذه الفكرة أعطته مظهرا يشـي بالأنفة وإن لم يشعر من قبل بأنه على هذه الدرجة من الانهزام.

عنـد دخولـه إلى المحكمة، تبين لـه أن كل شـيء كان كما المرة السـابقة: العقيـد إيمـار وعلـى جانبيـه القبطـان مارتينيـس والفارس ريوبو على المنصة، فيما كان العسـكري الأبهق قبالتهم جالسـا على كرسي مدرسي ومنهمكا في وضع ظلال على أعلام. بيد أنه قرب الباب المؤدي إلى القسـم، جلسـت امرأة متقدمة في السن على كرسي متهالك، مرتدية معطفا من فرو أستركان بال،

وبحقيبة يد في حجرها وحركات صارمة، وقد تابعته بنظراتها. قدم انتماءه بأمر من السكرتير الأبهق وظل واقفا قبالة المنصة متجنبا أي شكل من أشكال التصلب يمكن أن يؤخذ على أنه وضعية وقوف عسكري. أوقفت حركة من العقيد القراءة الروتينية للائحة التهم التي يتابع بسببها. ثم ساد صمت لفترة:

هكذا إذن، فأنت قد تعرفت على ميغيل إيمار في سجن بورليي..

تظاهر العقيد بأنه كان يبحث عن أوراق ما بينما كان ينتظر الإجابة التي تأخرت في الوصول.

ولماذا تتذكره بين كل هذا العدد الكبير من السجناء؟

لأنه كان ماهرا في القيام بالألعاب السحرية.

صرخ ريوبو:

- سيدي العقيد !

سيدي العقيد !

غير أن عيني العقيد كانتا تبحثان عن عينين أخريين في قاع القاعة، وخلال بضع لحظات اكتسى مظهر العسكري حالة من الضعف تشبه حالة آنية مهملة. قام بحركة تواطؤ تجاه الفراغ، ومن جديد، وجّه نظرته العكرة صوب خوان صينرا.

ولماذا كان معتقلا؟

عرف خوان أن الساعة ستحين، وأن عليه أن يجيب عن هذا السؤال. أحس بوهن كبير، وكان يكلفه الشيء الكثير أن يفكر مع تجاوز الألم وهو يعلم أن ميغيل إيمار قد اعتقل وحكم عليه لأسباب مدنية لا علاقة لها على الإطلاق بالحرب.

ترويج أدوية فاسدة أدت إلى وفاة مريض، سرقات لمواد غذائية عبر التسلل إلى مستودعات عسكرية، اتجار غير مشروع في البنزين والمحروقات، وجرائم أخرى شجعت عليها فوضى الحرب في مدينة مثل مدريد حيث انصب الاهتمام فقط على ما يجري في الجهة الأخرى من تحصيناتها.

كان الشباب يموتون في المتاريس، والقذائف تصيب المناطق الهامشية، لذا فإن الخوف من الهزيمة وضرورة التستر عليه كانا يمثلان الجزء المتبقي والقليل مما كان يعرف باسم بالسلطة.

وفي الأخير اقترف جريمة قتل.

أجاب خوان وهو يعرف أنه يكذب:

لانتمائه إلى الفرقة الخامسة سيدي العقيد !

لأنه بطل، يا ابن العاهرة، لأنه بطل !

صرخ ريوبو ذو الجسم المتشحم باحثا عن مباركة من رئيس المحكمة. فوجئ خوان بالطريقة التي كانت تتغير بها نظرة الملازم الأول. عندما كان يوجه نحوه صرخاته، كانت عيناه تحمران، وبعد بضع ثوان، وهو ينظر بشكل جانبي إلى رئيس المحكمة منتظرا تزكيته، كان الغضب يتحول إلى خضوع ترشح منه الدهون. غير أن هذه المرة، حركة خفيفة، تكاد تكون حركة أسقف، بيد مغطاة بحاشية الكم، قاطعت الكلام الفارغ والحار. بالإضافة إلى ذلك، كانت عينا العقيد تبحثان مرة أخرى في قاع القاعة، وتأخر وقتا لا بأس به ليتخلص من سطوتهما. كانت سدلتا أنف العقيد تنفتحان وتنغلقان بيسر

عند التنفس، وتمكن خوان من أن يلاحظ كيف أن الشعيرات التي تطل من الثقبين تتبللان بلزوجة لامعة وثخينة. هل كان يبكي؟

في الأخير سأل العقيد في النهاية مستعيدا خيط الحكاية :

ولهذا كان عليكم قتله؟

قال خوان صينرا، كأنه يحادث الخواء، إنه كان فقط موظفا بالقطاع الصحي للسجون. لذا فهو لم يقبض على ميغيل ولا حاكمه، وبالطبع لم يحكم عليه بالإعدام. ثم أضاف:

فقط تحدثت إليه عدة مرات سيدي العقيد!

لم يكن الأمر صحيحا. تذكر جيدا عمن يتحدث لأنه كان من ضمن الحالات التي لم يتمكن رعب الحرب نفسه من طيها، فميغيل هذا قد قتل راعيا من قرية فوينكارال ليسرق له بعض الخراف ويبيعها بعد أن يتلاعب بأسعارها. غير أن ابن ذاك الراعي، وكان طفلا صغيرا، سمر له مذراة في المعدة وكاد يموت. اعتنى به خوان صينرا وناوله أدوية بعد أن خضع لعملية جراحية تمت بالمهارة التي توفرها الحرب للحفاظ على الجنود. وفي فترة النقاهة، أعلن ميغيل إيمار استعداده لتقديم معلومات مقابل إخلاء سبيله، وسرد ما كان يعرف عن منظمات المنحرفين بما فيها تلك التي تزعمها، وحكى شيئا استعمل للضغط على أعضاء من الفرقة الخامسة كانوا يقومون بعمليات داخل مدريد المحاصرة. وعلى الرغم من كل ذلك، أعدموه قتلا بالرصاص.

وسألت من قاع القاعة السيدة المرتدية معطف فرو أستركان بال:

- وعن ماذا كنتما تتحدثان؟

التفت خوان ورآها واقفة، تتقدم ببطء وهي تنظر بتركيز إلى عينيه. كانت تحتفظ بحقيبة اليد في حضنها كأنها شيء ضعيف يتعين حمايته.

قال العقيد متوسلا:

- فيوليتا، بحق الإله!

غير أنها تشبثت بسؤالها:

- وعن ماذا تحدثتما؟

توجه خوان صينرا نحو رئيس المحكمة مستأذنا أن يجيب، وانتظر أن يتلقى حركة تسمح له بأن يقوم بذلك. أذن له العقيد أن يجيب. كان خوان يحاكم على أساس أنه مجرم في حق الوطن المسكين وهو يواجه الآن ألم أم ثبت أن ابنها قاتل. وكان على وشك أن يتعاطف معها.

قال خوان:

- لا أعرف، تطرقنا للعديد من المواضيع، طفولته، أبويه... أمور السجن، تحدثنا أحيانا عن الحرب. وبهذه الإشارات الملتبسة استهل خوان صينرا كذبة مطولة وكثيفة انبثقت من لحظة شفقة لتتحول إلى مرتكز حياة.

تلك المرأة ذات الملامح غير الواضحة والتي ينعكس عليها ضوء النافذة الموجودة وراءها، القابضة على حقيبة يدها كأنها تحول دون طيرانها، كانت تصوغ أسئلتها بصرامة لا تشبه على الإطلاق صرامة القضاة. هي لم تكن تريد أن تدين أو تبرئ، بل فقط أن تميز بين الحقيقي والمزور. ربما كانت تريد أن تعرف. من

شـفتيها الجامدتين الشـاحبتين والمتوترتين، توالت الأسئلة دون قلق ودون اهتمام بالإجابات.

صارمة، بشـيب أتى قبل الأوان، ودون حنان الأمهات، في حالة حـداد وحزينــة، تبدو تلك المرأة تجسـيدا للألـم خاصة لمن يريد رسم صورة للانتقام. ومع ذلك، فقلق نظرتها ولامبالاتها بكل ما يشـوش على ذاكرة ابنها، واللؤم الذي كانت تبحث به عن الكذب، كل ذلك حولها إلى شيء أشبه ما يكون بأم محطمة.

كان لـه أثـر حرق سـببه له، وهو مازال طفـلا، زيت حارق. هل عرفت أين؟

فـي الفخذ اليمنى، في الجهة الداخليـة. كان علي أن أحقنه بمسكنات بعد العملية، لهذا أعرف ذلك.

اية عملية؟

اسـتبدل خـوان مذراة ابـن الراعي بالتهاب الصفاق، أو شـيء مـن هـذا القبيل. وأضاف أنه لما وصل إلـى بورليي كان عمليا قد تعافـى وإن كان مازال في فتـرة نقاهة ومرة أخرى بأمل أن يلقى التعزيمة، بحث عن كلمة السر:

كان مريضا متفهما.

وانغلـق الجبـل. المـرأة الغامضـة التي يرسـم صورتهـا ضوء النافـذة الكبيـرة، خيـال الانتقـام، تقدمـت ببـطء نحـو خـوان محدقة فيه وغير مصدقة، وسـط صمـت كل الحاضرين، إلى أن وقفـت بـين المتهم والسـكرتير الأمهـق. لم تنفع في شــيء أوامر العقيـد إيمـار الرخوة، ولـم ينفع تكرراه لجملتـي « بحق الإله» ، و«فيوليتـا مـن فضلـك»، لأنهـا كانـت متعـودة علـى أن يتظاهر

زوجها بالسلطة، لأنها كانت تتحدث عن ابنه الذي لم يكن لها عنه أي خبر باستثناء احتلاله الرتبة الثالثة في لائحة من أعدموا بعد محاكمة سريعة. والآن أتيحت لها فرصة أن تعرف، وكانت ستشفي غليلها لمعرفة التفاصيل، لولا أن بكاء صادرا من الحلق وقد تحول إلى صوت غير متوقف ولا وجود له في اللغة القشتالية، وإن كان له وجود في لغة الحيوانات التي تبكي، حال دون أن تصوغ مزيدا من الأسئلة.

لم تقترب من خوان ولم تمد نحوه ذراعيها، لكنهما ظلا وحيدين وجها لوجه، من دون قضاة، ولا متحدثين باسم المحكمة، ولا سكرتير أمهق، ولا مكلفين بالحراسة. الآن، كان يضيئها النور الذي يواجهها ولكن، على الرغم من ذلك، ظلت معتمة. وفي الأخير تمكنت من النطق بشيء مفهوم: «كان ابني».

غادر العقيد مكانه خلف المنصة وخطا خطوات مسرعة وغير متناسقة إلى أن وقف إلى جانب زوجته التي، على الرغم من أنها في نفس طول قامته، فإنها كانت تعطي الانطباع بأن حجمها أكبر. سعى إلى أن تكون حركة من يده صارمة وسلطوية. «يكفي بالنسبة إلى هذا اليوم».

أمر الفارس ريويو بأن يتم أخذ السجين. والجنديان النحيفان اللذان أتيا به بخشونة، بخشونة أيضا أخذاه إلى الزنزانة التي كان يوجد بها المحكومون بالإعدام من طرف المحكمة التي يترأسها العقيد إيمار. ومثلهم جميعا التزم الصمت.

الصمت فضاء، فجوة نلجأ إليها وإن كانت لا تضمن لنا الأمان. الصمت لا ينتهي، ينقطع، سمته الأساس هي الهشاشة،

والبشرة المخاطية المحيطة به هي شفافة: تسمح بمرور كل النظرات. كان على خوان أن يواجه نظرات رفاقه في الدهليز حينما تم اقتياده من جديد، وهو تحت وقع مفاجأة كبيرة، إلى المكان الذي يحتاج الموت فيه إلى إجراء إضافي.

غير أنه، ولأسباب متصلة بتراكم العمل لدى المنتصرين، أعيد إلى الدهليز في وقت متأخر جدا. تمكن من استعادة صحفته - أو صحفة آخر كان سيموت - ودون تناول العشاء تكوم إلى جانب الحائط المظلم ورغب في التخفيف من ارتباكه بأن يحلم بأنه شيء فريد، أي شيء، ولكن شيء فريد : حيوان، ماء، حجر، أرض، دودة، دمعة، جبان، شجرة، بطل... وغلبه النوم دون أن يكون بحاجة إلى أن يفسر لماذا كان لايزال على قيد الحياة. احترم الجميع صمته. لا أحد سأله. تخيل أشياء مستحيلة وروائح وأصواتا، في حين كانت تتداخل في أحلامه فضاءات وألوان. اعتبر كل هذه الأحاسيس شكلا من أشكال التعود على عدم البقاء حيا، وحاول أن يتخيل اللغة التي يتكلم بها الهالكون.

الضعف له هذه المزايا.

في اليوم التالي استيقظ مهووسا بفكرة أن يكاتب أخاه مرة أخرى.

كان يعرف كيف يمكن العثور على قلم وورق لكتابة رسالة أخرى إلى أخيه. حدس، من دون أن يعرف لماذا، أن لديه متسعا من الوقت، ووجد فجأة نقاط تشابه بين الكتابة والمداعبات، وبين الكلمات والمحبة، وبين الذاكرة والتواطؤ. في سجن المهزومين ذلك، كان هنالك منتصران. كانا يتعايشان مع السجناء، لكنهما

ما كانا سيمثلان أمام المحكمة. كانا يرتديان لباس الجيش المتمرد ويتباهيان بالسير دائما مسرحي الشعر ببرنيطة عسكرية وبريش زينة أحمر يسجل دوما الإيقاع الحربي لخطواتهما. وعلى الرغم من هزالهما، فإن بريقا في حركاتهما كان يميزهما عن بقية السجناء. معلم مسن، صديق لنيكرين، عجز عن أن يتحمل الجوع وفصل الشتاء، أطلق عليها لقب إسبوث ومينا، برغم أنهما كانا شخصين اثنين، فإن تصرفهما كان تصرف شخص واحد.

في الحقيقة كانا معتقلين. خطأ ما فادح - لم يعترفا به قط - أتى بهما إلى ذلك الدهليز، حيث كانا يتمتعان بسلطة ما على السجناء ويتواطؤ خنوع مع السجانين.

نشأت حولهما حركة بئيسة لتبادل المؤونة: بفضل وساطتهما كان يتم الحصول على وقود جاف للمصابيح، قلم للكتابة، كمية من التبغ، ورق للف السجائر، وتوزيع اعتباطي للخدمات كان إيصبوث ومينا يدبرانه كذلك مقابل أشياء بئيسة: خاتم زواج، ولاعة، كيس ذهبي لحفظ الأسنان، أو أي شيء آخر قيمته هنا أكبر من قيمة كائن إنساني.

حصل خوان من إسبوث على ثلاث ورقات ومظروف مقابل أحد جواربه وأعاره مينا قلما من خشب لمدة ثلاثة أيام.

«أخي العزيز لويس

كتبت رسالة لأودعك والآن أنا سعيد أنهم منعوني من أن أبعثها لك، ربما لأن لحظتي لم تحن بعد. طالما أستطيع أن أكاتبك فذلك يعني أنني لازلت على قيد الحياة. حاكموني لكنهم لم يحكموا عليّ. أنا محتجز في منطقة حدودية.

أعرف أنه حينما سيتعذر عليّ مكاتبتك، كلانا سيكون وحيدا على الرغم من أن ميرافلوريس قرية صغيرة وجميع سكانها هم، بمعنى من المعاني، أقرباء لنا. أنا متأكد أنهم سيقفون إلى جانبك. ابحث عن عمل، ولكن ليس في ورشة النجارة لأن رئتيك لن تتحملا النشارة التي تتطاير في الهواء. يمكن للعم لويس، ربما، أن يمنحك فرصة للعمل بمحل بيع المواد الغذائية. آسف أنني لا أستطيع التكفل بمصاريف دراستك. ولكنك إذا ما تمكنت يوما ما من بيع أراضي والدينا، خصص كل ما ستحصل عليه من مال لتكوين نفسك. سوف يساعدك السيد خوليو المعلم في تدبر هذا الأمر».

على الرغم من أنه خصص اليوم كله لكتابة الرسالة، فإنه تمكن فقط من صياغة فقرة واحدة. فإذا كان الزمن في السجن لا متناهيا، فإن انتظارات ورتابات قاسية تتخلله: صفوف لا نهاية لها للحصول على وجبة من البطاطس المغلية، للذهاب إلى المرحاض أو للحصول على حساء العشاء. اصطفافات لا تنتهي لعد السجناء ثلاث مرات في اليوم، نوبات نزقة للقيام بتنظيف الدهليز الذي، برغم ذلك، يظل دوما متسخا، بالإضافة إلى أنه في ذلك الصباح كان عليه أن يحضر رفقة سجناء آخرين إلى العرض الذي قدمه إدواردو لوبث حول فائض القيمة ومضاعفاتها على وضع البروليتاريا العالمية. اعتاد خوان أن يصف المشاركين في هذه اللقاءات، التي تتم بأصوات منخفضة ولكن بتواطؤ طائفة دينية، بأنهم جثث ذات اطلاع.

تفتق الغروب عن ظلام متعدد وامتلأ الهواء بظلال متجمدة.

لا أحد كان لديه وقود.

استيقظ خوان عندما أتى الهواء البارد بصوت لائحة المحكوم عليهم بالساحة. لا أحد تحرك على الرغم من أنهم كلهم سمعوا تردد الأسماء، الواحد بعد الآخر دون إجابة: لويس فاراخادو، أنطونيو لويث إبيان، خوسي مارطينيث لوبث، ألبرطو مينكيز... ذلك الصوت القوي، ولكن الرتيب، كان مثل الدوي الذي يحدثه تماس عود ثقاب مع محك العلبة: كان يضيء الواقع.

بعد توزيع شعير الجعة الذي كان أحيانا يقوم مقام الفطور، اقتربت مجموعة من السجناء من خوان وسأله إدواردو دون مقدمات عن أسباب إعادته في كل مرة إلى الدهليز الثاني.

لا يقر قرارهم على محاكمتي. يبدو أنني شرير.

ألا يكون مرد ذلك إلى أنك تحكي أشياء لست متأكدا منها؟

كان خوان ينتظر أي سؤال باستثناء هذا.

لا أعرف شيئا ولا أحد يسألني. ذلك القاضي العصبي يجاري زوجته المجنونة. إنها تريد أن تعرف، بأي ثمن، ما الذي وقع لابنها.

وما الذي وقع؟

أعدمناه رميا بالرصاص. كان حقيرا. أقول لهم أقل ما يمكن قوله لأرى إن كانوا سيتركونني أعيش بضعة أيام إضافية. هذا كل ما في الأمر. حينما سيكتشفون أمري سأذهب أنا أيضا إلى الدهليز الرابع. لا تتضايق.

على خلاف سجناء ذلك الدهليز الذين كانوا نحيفين وهزيلين بسبب ظروف السجن، كان إدواردو نحيلا منذ ولادته. كان له

صدر بارز وأنف ذو مواصفات عبرية يمنحانه طابعا ذا بعدين مثل ما للدب الذي يتغذى بالنمل. غامق مثل كتاب قداس، كان قادرا على أن يمر من دون أن يثير الانتباه أمام حلقات النمامين حيث كان يحاكم من يحكم ويتم الانتصار على المنتصرين.

اعتبر خوان أن المحادثة قد انتهت لأن الاشتغال الآلي للتراتبية المعمول بها خلال السنوات الماضية كان يصعب عليه فهمه. كيف يقدم أموات على طلب تفسيرات من أموات آخرين؟

خلال يومين، توقفت المحاكمات وتقاسم الشاب ذو بيض القمل وخوان ذكريات وتواطؤات. كان أوخينيو باث قد بدأ يعرف معنى الحياة في مستهل الحرب. حتى ذلك الوقت، كان يعيش كيفما اتفق ببرونيطي يدرس كدس الحب في فصل الصيف ويحرث في موسم البرد ويزرع القرطمان قبل قدوم الأمطار. لم يذهب قط إلى المدرسة، ولكن كان يكفي أن ينظر إلى الدجاج ليميز بين الدجاجات التي تبيض وبين تلك التي تصلح لإعداد حساء فقط، وليعرف أية نعجة كانت ستلد ولادة صعبة، وأي سلوقي يصلح لصيد الأرانب الصغيرة من دون قتلها. لم تكن أمه متزوجة وقد حملت من صاحب الفندق الذي كان يتباهى بأنه لم يترك أي عذراء واحدة من فياسيوسا إلى نافالكارنيرو. لم يقبل قط أن يناديه أوخينيو أبي.

واستجابة لحديثه، حاول خوان أن يخبره عن أخيه وعن حياته بميرافلوريس، غير أنه لما أراد أن يتذكر، لم يجد سوى عواصف من الثلج، لأن كل ما تبقى كان بمنزلة مرتع للنسيان.

إذا كان المثول أمام العقيد إيمار قد تأجل لسبب من الأسباب

فإن شعورا من البهجة الخفيفة خيم على الدهليز الثاني. وإذا أضيف إلى ذلك، كما حدث في اليوم الثاني، أنه لم تكن هنالك لوائح تخص الذين سيركبون شاحنة الموت، فقد برز الأمل من خلل شقوق الخوف، وتحول إلى بلسم قادر على التخفيف من وقع البرد والجوع. لذا، وبالكاد انتبهوا إلى ذلك، ظهرت على الوجوه ابتسامات خفيفة وحركات صامتة توحي بالاطمئنان، شرعت، بالتدريج، في تهدئة كل دوار.

كان يوما عظيما. تبادل أوخينيو باث وخوان من جديد بعض التفاصيل الحميمة. اعترف له الشاب ذو بيض القمل أنه كان قلقا لما أصاب جسده. فكر خوان: «ذلك أنك ميت بالفعل»، غير أنه واساه بأن قال له: غياب من تحب أثر فيك. ربما كان الأمر كذلك.

في الصباح التالي، كان خوان يحاول ألا يفكر في أي شيء، ألا يرى أي شيء، ألا يشمّ أي شيء خلال وقوفه بالصف قبالة مراحيض الدهليز الثاني. كان مكانا نتنا، مغطى بالماء ومهينا. فوق أرضيات مستطيلة بها صف من الثقوب، دون جدران، دون أبواب، ولا تحفظ، ينتظر صف طويل من الرجال الذين كانوا يخفون خجلهم بتعليقات شبقية واستعجال ساخر.

سأله عريف كان يحمل لائحة في يده : أنت ممرض، أليس كذلك؟ تعال معي.

لم تنفعه في شيء إشارته إلى سبب وقوفه في الصف، إذ وهو يقول له «اقض حاجتك فوق ثيابك» قاده حتى الجزء الخارجي من الشباك الحديدي. من هناك، عبر غرفة الحراسة، مرا إلى

زنزانة محروسة بشكل استثنائي. أمر العريف بفتح الباب ودفع خوان نحو الداخل.

هذا الشخص يجب أن يظل حيا حتى يوم غد في السادسة صباحا. في حالة موته، سنعدمك أنت. سوف ترى.

وأغلق الباب بقوة. تمكن الظلام من عيني خوان صينرا الذي حدس، عند دخوله، بوجود جسم أعزل فوق سرير من دون فراش.

سأله خوان دون أن يتجرأ على لمسه:

من أنت؟

اسمي كروث ساليدو. وأنت؟

خوان صينرا

كان كروث ساليدو رئيس تحرير جريدة «الاشتراكي» في المرحلة الأخيرة من الحرب، وتمكن من الوصول إلى فرنسا في آخر لحظة. ورغبة منه في الوصول إلى وهران استقل سفينة شحن كانت تتوقف بجنوة، وهناك قبضت عليه مجموعة من «القمصان السود». وبعد شهر أعادوه إلى إسبانيا. ولما سئل عن التنظيمات الموجودة بالمنفى وعن خطط ليسطر للعودة إلى إسبانيا مع فرقة من الجيش وعن مئات الأشياء التي لم يعد يذكر ما قال بصددها بالتدقيق، حوكم وحكم عليه بالإعدام. بين كل هذه الاحتفالات بالموت، وكل هذا التعب، فرت الحياة من بين يديه وهي تتدفق، وكان منشغلا فقط برئتين أنهكهما السل. لم يتمكن قط من معرفة الجرم الذي ارتكبه. كان يعرف فقط أنهم كانوا حريصين على أن يصل حيا قبالة كتيبة الإعدام.

قال متوسلا:

الكونت مايالدي يريد إعدامي بشكل علني، قم بما تقدر عليه لأموت قبل ذلك.

لا يمكنك أن تطلب مني ذلك مهما كنت راغبا فيه.

أبدى كروث ساليدو موافقته. ما كان بالإمكان أن يطلب منه ذلك. وبما أنه كان يختنق حينما يتكلم، قرر أن يتكلم حتى الإنهاك، وشرع في منح صوت لذاكرته، متحسرا على بيصطيرو الذي كان يحتضر بسجن لاكارمونا وعلى أثانيا، يا له من رجل عظيم أثانيا هذا! لقد أخرسوه إلى الأبد بمكان ما مفقود ومنسي بفرنسا الخاضعة الآن لمخططات هتلر، وعلى ماتشادو، حبيبنا ماتشادو...

نحن شعب ملعون. ألا تظن ذلك؟

لا. أظن أننا لسنا شعبا ملعونا لأن الإقرار بذلك سيعني إلقاء الذنب على آخرين.

وبدا رئيس التحرير، بين لهاث ولحظات صمت وحشرجات، يقدم أخبار أصدقائه، أخبار الرجال الذين دافع عنهم بأعمدة جريدته، ولكن بتلك الأنفة المهنية التي كانت تمنعه من أن يتحدث عن نفسه. أصابه التعب في حكاية مدمرة لم ترغب في أن تنتهي كنَفَسه الذي لم يستطع أن يخمد. كان بردانا لكنه لم يقبل أن يدفئه خوان بجسده. كان ظهره يؤلمه ولم يوافق على أن يغير له شكل تمدده. كانت الذاكرة تخنقه وكان يريد فقط أن يتذكر مهما كان الثمن. في الفجر كان صوته قد أصبح مشكلا من كلمات ممتزجة بالموت. وواصل حديثه من دون توقفات إلا ما كان منها ضروريا لكي يستعيد نفَسه المتناقص بشكل تدريجي،

والذي أصبح يشبه، إلى حد كبير، هواء متبخرا.

مات وهو يحاول أن يتذكر أمرا غير واضح.

عندما فتح باب الزنزانة وعثر على كروث صاليدو ميتا، قرر الرقيب برغم كل شيء رميه بالرصاص، وضرب العريف خوان صينرا ثلاث ضربات بقندق البندقية، ثم أعادوه إلى الدهليز الثاني.

أخبر إدواردو لوبث بما حدث، وتظاهر بألم غير محتمل ليبرر البكاء غير المناسب الذي انتابه. في ذلك الدهليز، كان من المسموح به أن تعوي من الضربات المتلقاة، ولكن ما كان من المقبول أن يبكي المرء حزنا.

وبما أنه حدس أن ذلك سيكون مصدر مواساة، بحث عن ركن قصي ليواصل كتابة رسالته.

سأل الشاب ذو بيض القمل:

- لمن تكتب؟ لأخيك؟

نحو أخي، وذلك أمر مغاير.

تتحدث بطريقة غريبة! لا أستغرب أنهم يريدون رميك بالرصاص.

«مازلت على قيد الحياة. مرت عدة أيام ولكن هنا لا توجد سوى صعوبات. ما بين القلم والورق وغفوتي الدائمة تمر بالنسبة إلي الساعات كأني لا أجرؤ على استثمارها لأني أعرف أن هذا الوقت ليس ملكي.

أحلم باستمرار من دون أن أعرف إن كنت نائما أو أني أتخيل، من دون أن أرغب في ذلك، عالما يكاد يكون فارغا حيث الجميع

يتكلم لغة غريبة لا أفهمها، وإن كنت لا أحس بأني وافد جديد. عندما سأتعلمها، سأحدثك عن اللغة المستعملة في أحلامي. لون الهواء هو مثل لون الأماسي في صيف ميرافلوريس، على الرغم من أنه لا توجد جبال والمشهد يضيع في أفق بالغ الصغر لا يبدو بعيدا وإن كان لدي انطباع أنه يستحيل الوصول إليه...».

كانت رتابة ذلك الدهليز تشرف على النهاية، ومع ذلك فهي تظل رتيبة. والنزوع التلقائي الذي يجعل المجموعات تتشكل ثم تتكسر بالغيابات الحتمية للمحكوم عليهم، كان يظل قائما كأن الحياة متواصلة.

كان إصبوث وميتا الوحيدين من بين السجناء المسموح لهما بالصعود إلى أسطح البناية. كانا يقومان بذلك كلما تعين ضرب صوف أفرشة ضباط الصف العاملين بالسجن.

مرة في الشهر، كانت تعطى لكل واحد منهما عصا بطول مترين، في آخرهما مثلث مستقيم، ويستعملانهما لرج محتويات الأفرشة المبقورة إلى أن يصبح الصوف منفوشا مثل الثلج.

حينما كان خوان موجودا بالسطح، لم تكن مشكلته هي الحنين إلى الأفق الذي ترسمه البنايات، ولا النظر إلى السماء المفتوحة باعتبارها رمزا للماضي، ولكن هي أن يجذب الحمام الجائع الذي كان يحوم فوق مدريد بحثا عن قوت مستحيل خلال فصل الشتاء. كان يحتاج من أجل تحقيق ذلك إلى كل ما يمكن أن يساعد على جذبها: فتات الخبز، قطع رقاقة كان مشاركون في القربان يحتفظون بها بعد القداس، صراصير، بق، ثمالة الهندب، وحتى قشر بطاطس تركها أحدهم ليتمكن من

أن يستبدلها بشيء أكثر ضرورة من الطعام.

لما كان الحمام يأتي بأمل العثور على شيء ما يأكله، كان أسبوث ومينا يظلان من دون حراك حتى يصبح الجوع أكثر قوة من الخوف ويبدآن في نقر المصيدة الموضوعة فوق أرضية السطح. حينذاك، وفي حركة سريعة ومدروسة كان كل واحد منهما يوجه ضربة لاثنتين من الحمام فتظلان بذلك في وضعية الفم إلى الأعلى وقوائمهما منكمشة على الصدر كأنهما كانتا ترغبان في أن تحتميا من السماء التي كانت تتحطم فوقهما.

كانا يأكلان واحدة منهما ويستعملان الأخرى للتبادل مع الحرس، وللحصول على ما سيكون موضوع مقايضة مع السجناء.

هكذا مكن أسبوث ومينا السجين خوان صينرا من مزيد من الورق مقابل حزامه ليتمكن بذلك من مواصلة الكتابة لأخيه.

«مازلت حيا. لا أريد أن أحسب مرور الزمن ولا أن أحدثك عما حدث حولي. ولكني كلما لجأت إلى ذاكرتي، كان إخفاقي أكبر. إمكانية التفكير في كل هذا هي امتياز يحظى به من هو محكوم عليه، هي امتياز العبد».

في هذه اللحظة وقعت مشاجرة بالدهليز ودخلت فرقة من الحراس مهددة السجناء وأجبرتهم على أن يظلوا واقفين ووجوههم إلى الحائط وأيديهم إلى الأعلى خلال ساعتين لا متناهيتين. كان فتيل المشاجرة قد أشعله نقابي من منطقة أراغون وفوضوي من كاديس تم ضربهما حتى لم يبق لديهما أدنى أثر لقناعة ما وتبددت كل أفكارهما. كان خوان يفكر في

المعايير التي سيعتمدها الفارس كابلان ليمنع هذه المرة بعث الرسالة التي كان يكتبها لأخيه.

في تلك الفترة، بدأ يُسمح ببعض الزيارات للسجناء. حصل على التصاريح اللازمة لذلك أولئك الأقارب الذين قدموا أنفسهم على أنهم رجال دين أو عسكريون ذوو رتب لزيارة أفراد أسرهم السجناء الذين لم يتم اتهامهم تهما خطيرة. بدأت تصل أخبار ملطفة بخصوص ذلك الصمت. كان هتلر محاصرا في معركة إنجلترا، وكان رجال المقاومة ينتظمون في عدة جهات من الشمال، وراجت إشاعة مفادها أن الولايات المتحدة الأمريكية ستزحف على شبه الجزيرة من جهة الجنوب.

جميعهم كانوا يتمنون أن يمر الزمن، وتعلموا أنهم كلما عدوا إلى الستين مرت دقيقة. لكن الأيام كانت ممتدة.

كان بين السجناء رجل متقدم في السن وصموت، يتجنب الاقتراب من الآخرين بما في ذلك خلال الليالي التي كان الجميع فيها يتكدس بحثا عن دفء الآخرين. كان الكل يناديه الرضيع، والقلة كانوا يعرفون اسمه. كان يتحمل بصبر البرد والجوع وارتياب الآخرين. كانت لديه ندبة كبيرة تفرق شعره إلى قسمين. من ذلك الوجه الحزين ما كان يحتفظ بأي ملمح باستثناء الصمت وعينين واسعتين لا ترفان كأنهما كانتا في حالة اندهاش مستمرة.

لم يكن يتحدث قط. كان ينصت إلى الأصوات التي تأتي من الساحة أو من بقية الدهاليز والضجيج الذي ينقله الهواء، وينأى بنفسه دوما عما يقوله أولئك الذين كانوا يتقاسمون

معـه الاعتقال. كان اسـمه كارلـوس أليغريا، وكانت رتبته فارسـا مؤقتا بالجيش المتمرد. كان ينتمي إلى عائلة فلاحين ميسـورين ببورغـوس. وفـي ١٨ يونيـو مـن سـنة ١٩٣٦ كان على وشـك أخذ القطار للعودة إلى منزله من سلمنكا حيث كان أسـتاذا مساعدا بشـعبة القانون الروماني لما علم بوقوع انقلاب عسـكري بشـمال إفريقيـا. فكـر مـا يلـي: «دافع عمـا تملكـه»، وبحث عـن طريقة للالتحاق بالمتمردين. بشـكل فوري حصل على رتبة فارس مؤقت بفضـل تكوينـه الجامعي. لم يكـن بطلا ولم يحدث له أن شـعر بالخـوف الذي تولده الحـرب. كان دائم الحضـور بالثكنات التي تؤمـن المؤونـة للمقاتلين. والأمر الأكثر صرامـة الذي وجهه كان يهـم لوائـح أمناء في الجيش عرفوا بجشـعهم ووفائهم للقضية كان دومـا محـط شـبهة. ولتفانيـه فـي العمـل ترقى إلـى درجة قبطان مكلف بتدبير المؤونة.

سـاعات قبل أن يسـلم العقيـد كاصادو السـلاح أمام الجيش المتمرد هرب من الخدمة. كانت الحرب على وشـك الانتهاء وهو، مـن دون سـلاح أو أمتعـة، انتقل إلى معسـكر المهزومـين. لا أحد صدقـه من الجمهوريين ولا أحد حماه عندما دخلت فرق فرانكو إلى مدريد. اعتقل على الفور وحوكم ورمي بالرصاص ذات فجر رفقة عشرات من التعساء كانوا أول من ماتوا لأنهم كانوا أول من قُبض عليهم.

إن السـرعة فـي القتـل تمنـع من أن يكـون المـوت متقنا. لقد أصابـت رصاصـة أعلـى جبهته ومـرت بمحـاذاة جمجمتـه دون كسـرها. علـى إثر ذلك ظل مـن دون حراك والحاجـة إلى توفير

الذخيرة حالت دون استعمال رصاصة الرحمة بالنسبة إلى محكوم عليه غفل كان وجهه بالكامل ملطخا بالدم. دفن في قبر جماعي بسرعة مثله مثل الباقين، وبالكاد غطى بعض التراب تلك الجثث.

عندما استعاد وعيه، كان مدفونا بشكل سيئ بين الأجسام غير المنظمة لهالكين آخرين كانت لازالت ملتصقة بهم روائح تدل على وضعيتهم السابقة: عرق ، بول، وكذا ما يمكن أن تكون عليه رائحة الخوف. ترك الشكل غير المنظم الذي كان عليه المدفونون أكياسا من الهواء تنفسها وحده، هدية وداع من طرف خصومه، ومن دون أدنى فكرة عن الزمن ومن دون أدنى دليل على أنه مازال على قيد الحياة سوى ألم واخز برأسه، تمكن من تحريك الموتى الذين كانوا يسحقونه بثقلهم ومن إزالة طبقة التراب التي كانت تفصله عن السماء. كان حيا بخلاء ما - بعد ذلك سيعرف أن المكان هو أركاندا ديل راي - غارقا في ظلمة منعشة تسللت إلى تلك المقبرة المرتجلة.

حاول البحث عن المساعدة، لكن كل الذين رأوا ذلك الرجل المدمي وبجرح كبير في الرأس، كانوا يغلقون أبوابهم بمرتاج الرعب. لم يغثه أحد. لم يعره أحد قميصا ليخفي الدم المخثر في قميصه، لا أحد قدم له طعاما، ولا أحد دلّه على طريق العودة إلى منزل أبويه.

في أواخر شهر أبريل، اعتقل من جديد بصوموسييرا وأرسل مرة أخرى إلى ثكنة كوندي دوكي ليعاود من جديد المرور بصراط الموت.

لما كان ضباط السجن القساة يسألونه عن انتمائه العسكري كان دائما يقدم الإجابة نفسها: اسمي كارلوس أليغريا، ولدت في ١٨ أبريل ١٩٣٩ بقبر جماعي بأرغاندا ولم أنتصر قط في أية حرب».

لهذا أطلقوا عليه لقب الرضيع.

كان خوان يشعر بانجذاب ما نحو هذا الرجل الوحيد والصموت، وكان يثيره غيابه الدائم المكذب، من جهة أخرى، للشبهة العامة التي تروج لكونه مندسا يسترق المعلومات. وحين قدوم الليل في يوم لم تكن فيه لائحة، اقترب من المكان الذي كان فيه خوان يراود النوم وهمس في أذنه: «أنا وأنت نعيش بالاقتراض. علينا أن نفعل شيئا حتى لا نكون مدينين لأي كان بأي شيء». وابتعد نحو نهاية الدهليز حيث كان حاجز الدخول الحديدي وشرع يصرخ: «أيها الحارس، أيها الحارس» بنبرة مستهترة وصارمة في الوقت نفسه.

ظل كل السجناء متمسكين برباطة جأشهم محافظين على الوضعية التي كانوا عليها قبل أن تفاجئهم الصرخات. كان الرضيع، وهو يضرب قضبان الحاجز الحديدي بصحفته، يواصل صراخه بقوة ما كان أحد يظنها لدى ذلك الرجل الضئيل الذي وشمه الموت. وأخيرا اقترب منه جنديان وبقندق البندقية عملا على إبعاده عن الباب. غير أن قدرته على الإحساس بالألم كانت قد نفذت منذ أمد بعيد أمام كتيبة متسرعة للإعدام وضربات البندقية الشديدة ما كان يبدو أنها تؤثر فيه. وفي عراكه، تمكن من القبض على قندق إحدى البندقيات وبحركة سريعة وغير

متوقعـة، انتزعهـا من الجندي الـذي كان يضربـه. في جهة من الحاجـز جنـدي مسـلح وآخر منـزوع السـلاح، وداخـل الدهليز صمـت جماعـي متراكـم فـي سـكون لا متنـاه وراء الرضيع وهو يصوب البندقية نحو حراسه.

وتجـاوز هذا الصمت الحاجـز والدهليز والليل الذي أتى قبل أوانـه ولهـاث الرضيع الباحث عـن العدل. ولم يحـدث الجندي المسـلح نفسـه أي ضجيج عندما ترك بندقية صنف ماوسر على الأرض مطيعا إشـارة سـلطوية مـن ذلك المجنون الـذي، بحركة احترافية وسـريعة، فتح قفل سلاحه. حول ببطء البندقية نحو نفسـه ووضع طرف الفوهة على ذقنه وقال إنه لم يقتل من قبل وأنـه، مـع ذلك، سـيموت مرتـين. أطلـق الرصاص ليكسـر ذلك الصمت وليسدد دينه.

الصـراخ، الصفيـر، الأوامـر الصارمة، والدهشـة وضعت حدا لذلـك اليوم الذي كاد يمر من دون أموات. أعطى الفارس كابلان المسحة الأخيرة إلى روح تطايرت إلى آلاف القطع.

فـي اليـوم التالي كانـت هنالك من جديد لوائح في السـاحة وشـاحنات تقـل رجـالا خنوعـين قادمـين مـن الدهليـز الرابـع، لكـن لم تكـن هناك منـاداة للمثول فـي القبطانيـة العامة أمام العقيـد إيمـار. كان خـوان مـازال تحـت تأثيـر سـلوك الرضيع، وكانـت اسـتكانته الخاصة تجاه الموت تبدو لـه كل مرة غير قابلة للاحتمال وبشكل أقوى.

المـوت؟ لمـاذا المـوت؟ حتـى الآن، لا أحد اتهمه بشـيء ملموس باسـتثناء أنه عاش بمدريد خلال الحـرب. لا أحد كان يعرف أنه

عـاد مــن إلدا مكلفــا من طــرف فيرناندو كلوديــن بمهمة ترتيب محاولة اغتيال العقيد كاسادو.

درس عادات كاســادو برغم أن الوقت لم يكن يســمح له بذلك وسجل بدقة ساعات دخوله وخروجه من مقر القبطانية. وعرف أين كان يعيش وأي طريق يتبع عادة.

عندما أعد كل شيء لتنفيذ الهجوم، استسلمت مدريد لقوات الجنرال فرانكو. لم يتمكن من تأخير الهزيمة ولو ليوم واحد.

هــذا الأمــر كان يعرفه فقط طوكلياتــي وكلودين ولا أحد كان سيســألهما عــن أي شــيء. كان مــازال بإمكانــه أن يكــون موظفا بســيطا بمصلحة الســجون. كان مازال شابا وبالغ الغموض مما كان يســمح بتكليفــه بأية مســؤولية في الحرب. وهــذا الأمر كان يواســيه. كان يمكــن أن يكون مهزوما إضافيا، خاســرا بالمصادفة، لأنه بالمصادفة كان بمدريد في ١٨ يونيو ١٩٣٦.

ربما سيتمكن من إخفاء هزيمة خوان صينرا.

ســمع اســمه يتــردد كأنــه كان فــي كهــف عبــر الســلالم التي كانــت توصل إلى الدهليز. ســبق الصدى الصــوت، وحينما صرخ العســكري مرة أخرى مناديا اســمه أمام الحاجز الذي يغلق على الدهليز، كان الجميع ينظرون إليه، ساكنين، خنوعين، مندهشين. لقد كانت للموت مواقيت، وهذه كانت ساعة غير مناسبة.

مــن دون أن يضــع الصحفة، رفع يده وخاطبــه أحدهم بحدة قائلا: «تعال هنا»، وانفتح له الطريق بين المجموعات المتحلقة من دون حراك ليواصل السير من دون عراقيل حتى المدخل. مسبوقا بالرقيــب إيديلميرو ومحاطا بجنديــين مهلهلين وضعيفين، تم

أخذه إلى غرفة ضيقة من دون نوافذ كانت توجد إلى جانب المطابخ في السرداب.

هنالك كان العقيد إيمار والمرأة ذات معطف فرو الأستركان وهي مازالت تقبض على حقيبة يدها كما تشد الكواسر على غنيمتها. كانا جالسين على مصطبة صغيرة من الآجور وكانت المرأة تتهيأ للنهوض، غير أن حركة سريعة من طرف العقيد شبيهة بحركات القطط منعتها من ذلك.

كان الرقيب والجنديان ينتظران أمرا من رئيسهما المباشر، وهو أمر اتسم بعدم الدقة والرخاوة.

سأل الرقيب مندهشا:

- هل تريد أن تبقى وحدك مع السجين سيدي العقيد؟

غير أن الحركة غير الدقيقة رُسمت في الهواء هذه المرة في حجم أكبر، ومرددا «تحت أمرك سيدي العقيد!»، خرج الرقيب من الغرفة ليتبعه الجنديان. لم يغلقوا الباب وظلوا على بعد كاف حتى لا يسمعوا ما يروج، وقريبين بشكل يسمح لهم بأن يتتبعوا ما يحدث في تلك الغرفة.

وما رأوه هو أن العقيد وزوجته ظلا جالسين قبالة خوان صينرا الذي كان ينتظر، من دون حراك، تفسيرا لما كان يحدث.

رأوا كذلك كيف أن المرأة ذات معطف الأستركان البالي أخرجت ببطء صورة من حقيبة يدها، وأرتها للسجين الذي حرك رأسه موافقا.

لم يتمكن الرقيب إيديلميرو من أن ينصت إلى خوان صينرا وهو يحكي لأبوي ميغيل إيمار كم كان ولدهما بسيطا وتلقائيا.

طبعه غير القابل للخضوع والشجاعة التي أبان عنها حينما رفض الهرب من مدريد عندما انقلب كل شيء ضده. لم يستطع الرقيب أن يسمع الحكايات التي كان ينسجها خوان صينرا أمام أم كان وجهها يضاء بمقدار ما كانت منجزات الكذب تحل محل فظاعة الواقع.

كما أنه لم يتمكن من أن يحدس - فالحرب لا تترك رهافة الانتباه للتفاصيل - كيف أن غريزة البقاء كانت تترك مكانها لإحساس بالشفقة تجاه امرأة فقدت رشدها بفعل ألم كان خوان صينرا يتعرف عليه كما يتعرف على لهاث الموت.

كان الرقيب يرى فقط كيف أنها كانت تقترب من السجين صينرا الذي، بفصاحة غير معهودة، تحدث وتحدث بشكل مسترسل مجيبا عن أسئلة مقتضبة ومتوسلة من زوجة العقيد. ورأى كذلك، تحت وقع مفاجأة كبيرة، كيف أنها أخذته من ذراعه، وكما تفعل أي أم أجبرته على الجلوس قرب العقيد المذهول على المصطبة الصغيرة التي، بالنظر إلى وجودها على يمين الباب، فإن الرقيب إيديلميرو كان بإمكانه رؤية جزء منها فقط. استأذن أحد الجنديين ليلف سيجارة، وتوقف الشهود الثلاثة عن متابعة ما يجري من دون أن يتجرأوا على مساءلة سلوك رئيسهم المباشر.

عندما عاد خوان إلى الدهليز الثاني، كانت الكلمات الأخيرة لتلك المرأة مازالت ترن في أذنيه: «سآتي لك بقميص صوفي فالبرد قارس»، وتوسل إليها العقيد الباحث عن العدالة قائلا: «فيوليتا من فضلك!».

كان بالـكاد يجـرؤ علـى أن يحكـي لأي كان عمـا يقـع لـه. وباسـتثناء إدواردو لوبث لم يسـأله أحد. وحده الارتباط الوثيق الـذي تعنيه العلاقات النضالية أجبره على أن يصرح بكل شـيء أمام المسؤول السياسي الذي لم يخف استغرابه.

كان خـوان على وشـك أن يتحدث عن لغـة غير مفهومة، لكن شـيئا مـا نبهـه إلـى أن إدواردو لوبث كان فقط يسـمي الأشـياء بمسمياتها. واليوم التالي كان يوم أحد.

أجبر كل السـجناء على حضور القـداس الذي أحياه الفارس كابلان بالدهليز نفسه. في موعظته الحربية، الحانقة والممجدة للوطـن، تحـدث عـن الرضيـع. دان الانتحـار بوحشـية لكنه لم يتحـدث عن وفيـات أخرى. أنصت الجميع فـي صمت، والبعض، بغريـزة بقـاء أقـوى مما عنـد الآخرين، اقتـرب لتنـاول القربان عندما حـان الوقت. كـان الشـاب ذو بيض القـمل مـن بينـهم. لما عادوا إلى أماكنهم، ركع الذين تناولوا القربان مغطين وجوههم بأيديهم بحركة فيها من رغبة الهروب أكثر من الخشوع.

عندمـا سـأل خـوان الشـاب إن كان يعتقـد أن تنـاول القربان سـيغير مصيـره، أجابـه: علـى الأرجح نعـم، ولكن مـا يهم على الخصوص هو أن الرقاقة هي طعام، وأنه يشعر دوما بجوع قاهر.

دفعته خطبة القسـيس إلى أن يتم رسـالته غير المنتهية. كان إيقـاع الزمـن البطـيء يجعل الوقائع تمر بسـرعة، تتسـارع، وإن كانت الثواني تمر بتأن يثير الغيظ.

بمجـرد أن تمكـن مـن الابتعـاد، حتى اسـتعاد القلـم والورق وواصل الكتابة:

«... مازلت حيا. لغة أحلامي هي كل مرة أكثر وضوحا. هي كلمات يستعملها الناس في أحلامي ليحدثوني عن مناظر مشتاق إليها وأمكنة تتحدى الحواجز. يروق لي أن أتحدث بهذه اللغة».

جلس الشاب صاحب بيض القمل إلى جانبه وظل صامتا. توقف خوان عن كتابة الرسالة، وعرف أنه قد تعلم ترتيب الأحزان، أن يفرق بين يأس وآخر، أن يتعرف على الخوف الممزوج بالبغض، وعلى البغض وحده، وعلى الخوف الصافي. كان يعرف كذلك أن يميز بين الذي يندم لأنه لم يفعل شيئا محددا، والنادم لأنه فعل شيئا. لكن ذلك الشاب كانت له نظرة بندبة أحس بأنه شرع في نسيانها: الحنين. ربما لذلك السبب تحدثا بتأن، وهما ينظران إلى السماء عبر مربعات تشكلها نافذة بشباك. حدثه خوان عن موزارت – مهزوم آخر- وعن ساليري، حدثه عن رامون إي كاخال – مصارع وحيد – وعن كيفية تشكل الغيوم. حدثه عن داروين وعن الأهمية التي اكتساها أصبع الإبهام في عملية تحول الإنسان إلى إنسان، ولكي ينزل من الشجرة ويتعلم قتل من يشبهونه.

في تلك الأمسية الباردة، بدهليز نزعت عنه بشكل لا رجعة فيه الحركة الطبيعية للأشياء، لم يجد خوان قوى لمواساة صديقه. لا شيء كان نافعا لأن المنطلق لم يكن حقيقيا.

مهما فعلت، ستجد دوما نصف أناسك ضدك. إن ذلك بمنزلة عقاب. لا أحد مطالب بأن ينجزه بشكل جيد. هل كلامي ممل؟

أنا مستعد لإعطاء أي شيء مقابل لف سيجارة.

كان هذا هو كل جوابه.

وبتطرقهما لهذا الموضوع وذاك، نسيا الموت، ومر يوم أحد خلسة بمدينة سئمت من الخوف. وجاءت أيام تتلوها أيام بلوائح في الفجر واستدعاءات للمثول أمام محكمة العقيد إيمار. ولكن، مع مرور الوقت، أصبحت فترات الراحة أكثر اعتيادية. اليوم، لم تكن هنالك شاحنات الموت، وغدا لم تكن هناك حالات مثول أمام محكمة ردع الماسونية والشيوعية... وما كانت تتم قط المناداة على خوان.

ذات مساء، بعد مرور بضعة أسابيع، سمع اسمه بقوة في الممرات، ورافقه الرقيب إيديلميرو مرة أخرى إلى الغرفة الضيقة التي كانت توجد بجانب المطابخ. هناك، كان العقيد الصارم والمعتد بنفسه وزوجته المغلفة بمعطف الأستركان. لم تكد تراه حتى مدت له قميصا صوفيا أخضر اللون. «كان لميغيل الصغير» قالت له. وابتدأت، وكأن الوقت لم يمر، من حيث توقف حديث اليوم السابق.

كانت تحكي طرائف عن ابنها مقابل أكاذيب خوان الذي تذكر أن ميغيل خلع جوارب الصوف ليعيرهم إلى سجين آخر جمده البرد، وأنه في إحدى المناسبات، رمى بحصته من الأكل في وجه الطباخ الذي رفض أن يعطي خبزا لسجين كان يغني» في مواجهة الشمس» كلما توجه إليه أحد بالكلام.

كانت أكاذيب ليست مختلقة بشكل كامل، لكنها منسوبة إلى شخص لا يستحق أن يكون هو من قام بها، شخص ما كان بالإمكان أن ينسب إليه أمر بطولي أو مرده إلى أنفة ما حتى.. كانت للإستراتيجية مفعولها. وقد تأكد خوان صينرا من ذلك.

ففي مناسبتين لم يلق الرقيب إيديلميرو أي اهتمام عندما أحنى رأسه وهو يقول بخنوع: «سيادتك تأمر بما تشاء سيدي العقيد»، وكذا في النهاية، عندما تحول صبر العقيد إيمار إلى جمل وديعة «فيوليتا، الوقت متأخر» أو «فيوليتا، ليس لدينا إذن سوى لخمس عشرة دقيقة». فتحت المرأة حقيبة يدها ومدت له سندويتشا من سمك الرنكة ملفوفا في ورق قش. ثم قالت بنبرة متحدية وهي تنظر إلى زوجها:

سأعود.

تحمل خوان التحقيق الرتيب لإدواردو لوبث واقتسم الساندويتش مع الشاب ذي بيض القمل. ما الذي كان يجعل المسؤول السياسي يعتقد أنه في يوم من الأيام سيستعمل المعلومات التي يراكمها؟ كونه مازال حيا مرده بكل بساطة إلى المصادفة، إلى نظام اعتباطي للموت. بالإضافة إلى ذلك، كان من المستحيل إقامة أي تواصل مع العالم الخارجي. ومع ذلك، وبفعل انضباط محمود، كان يواصل مراكمة المعلومات ويحلل سلوك السجناء.

اعتذر خوان مختلقا عذرا لينهي المحادثة، فالحياة لها رائحة سمك الرنكة وهذا ما يجعلها رائعة.

مرت الأيام وكان شهر مارس باردا ورطبا كما هو الزمن غير المأهول.

ويرغم شعوره بنفور تجاه المعطف الصوفي لميغيل إيمار، فقد كان ممتنا للدفء الذي كان يمنحه إياه خلال تلك الليالي التي لا تريد أن تنتهي.

تتابعت اللوائح وإن كانت كل مرة أكثر قصرا، وما كان يبعث أكثر على الأمل، هو علمهم بأنه قد تم النطق بأحكام بالسجن المؤبد لا بالإعدام.

كان ذلك شيئا شبيها بالحياة.

تلقى زيارة أخرى من المرأة ذات معطف الأستركان وزوجها الخنوع. عاود الكذب واختلاق حكايات بطولية كانت تنتزع الإعجاب من تلك الشفتين الشاحبتين اللتين ما كان بإمكان أحد أن يتصورهما وهما تقبلان. وفي وضع شبيه بوضع شهرزاد، كانت تلك الأكاذيب تسمح له بليلة إضافية، وبليلة إضافية أخرى. وبليلة إضافية أخرى. إلى أن جاء اليوم الذي كان فيه الشاب ذو بيض القمل مرتبا الأول في لائحة من سيتلقون حكم العقيد إيمار. انتظر خوان طوال اليوم عودة المحكوم عليهم. من النافذة استطاع أن يصرخ سائلا إن كان أحد يعلم شيئا عن مصير أوخينيو باث. لا أحد أعاره اهتماما ولا القسيس نفسه استطاع أن يقول له شيئا عما حدث للشاب. ابتدأت أيام من ضيق جديد لخوان، ضيق على ضيق، حيرة فوق حيرة.

تعيد الحيوات المحجوزة في السجون، بهذا القدر من الاستعجال، تركيب تاريخ من المشاعر، من الذكريات المتراكمة في الزمن إلى درجة أن السجناء أنفسهم يفاجأون أنه لتوليد المشاعر السابقة، تلك المنتمية إلى الخارج، يتطلب الأمر حياة بأكملها معيشة بكثافة. وبرغم ذلك، ارتعب خوان حينما ألحت عليه فكرة أنه لو كنا أحياء في القبر لانتهى بنا الأمر إلى أن نحب الدود.

قدم قميص ميغيل إيمار رشـوة للرقيب إيدلميرو، ولكنه تمكن فقـط مـن أن يعرف أن أوخينيـو موجود في الدهليـز الرابع من دون أن يعرف فحوى الحكم. حاول أن يوصل إليه رسالة لكنه لم يكن يملك أي شـيء يدفعه مقابل توسـلاته، ولم يعرف أوخينيو باث أن خوان صينرا قد أرسل له ضمة صديق وأخ.

لـم يعـرف قـط أن خـوان صينـرا كان يريـد أن يعثر على الفتـاة الحامـل الآتية مـن سـيغوفيا ليقول لهـا إن أوخينيو كان وفيا ومشـتاقا إليها. لم يعرف قط أن خوان كان منشـغلا بالجـروح التي تخلفهـا محاولة التخفيف مـن التهيج الذي يسببه القمل.

وذات فجـر، ملتصقا برغم البرد، بشـباك النافـذة التي كانت منزوعة الزجاج، سمع اسم أوخينيو باث وقد نادى عليه الضابط الـذي كان يعـد مـن تم اختيارهـم للموت ذلك اليـوم. قام خوان بالمجهود الجسدي الأخير في حياته حيث تعلق بالنافذة وصرخ:

أوخينيو، لا تصعد إلى الشاحنة! أنا خوان!

واصـل صوت الضابط صارخا مناديا بقوة على أسـماء أخرى كأن لا شـيء كان بإمكانـه مقاطعتـه. بالتدريج تخلـت عنه قواه وترك خوان نفسه يسقط في حالة وهن. بكى كما لم يكن يتصور أنـه كان بالإمكان البكاء بعد حـرب. وعندما اختفى أزيز المحرك خلـف بوابـة السـاحة، كان المتعـود على تأويـل أنواع النشـيج أو مترجم متمرس للبكاء سيسـتنتج أنه من بين كل تلك الأصوات المتقاطعـة، كان خـوان قـد نطـق بكلمـة «وداعا». ولكـن لا أحد سـمعه، فتمكـن منه فتـور من دون إحسـاس تجاه البـرد والجوع

ونفس الآخرين وذلك خلال يومين وليلتين كأن اشـتغال جسمه توقف، وكأن الزمن نفسه مات حزنا.

تبين لخوان أنه لم يعد لديه متسع من الوقت لينهي رسالته. بأحرف معتدلة وصغيرة واصل الكتابة حتى أتم الورق الذي كان قد حصل عليه:

«مازلت على قيد الحياة، ولكن حينما ستصلك هذه الرسالة، سـأكون قـد أعدمـت. حاولت أن أجـن لكني لم أتمكـن من ذلك. أتنازل عن مواصلة الحياة مع كل هذا الحزن. اكتشـفت أن اللغة التـي حلمـت بها لخلق عالـم أكثر لطفـا هي فـي الحقيقة لغة الموتـى. اذكرنـي دائما وابـذل جهدا لكـي تكون سـعيدا. أحبك.. أخوك خوان».

حـاول أن يتخيـل حركـة الملازم الثانـي القسـيس عندما كان عليه أن يمارس الرقابة على رسـالته. أغلق المظروف، كتب عنوان أخيه وسلمه إلى حارس الدورية لكي تأخذ الرسالة مسارها. كان ذلك هو المعمول به.

هكذا كان دائما يودع الأموات الأحياء.

فـي اليـوم الثالـث، كـرر الجاويـش إيديلميـرو اسـمه إلى أن تخلـص خوان مـن خموله. سـاعده أحدهم للوصـول إلى الباب ولـم يسـر الجنـود إلى جانبـه هذه المـرة لأنهم احتاجـوا إلى كل قواهـم ليسـندوه ويأخـذوه أمام المـرأة ذات معطف الأسـطركان. كانت هناك منتبهة، بحس أمومة بيّن، حاجبة بجشعها الغامض الحضـور الضئيل للعقيد إيمار الذي ظـل، كالعادة، متخفيا في خلفية المشهد.

سـألته إن كان مـريضا. تأخـر خوان في الإجابة كأنه لم يفهم، وفي الأخير تمكن من القول:

- «أنا ميت».

«هيـا، هيـا!، قالت المرأة متحمسـة وهي تأخـذه إلى المصطبة، الأمر غاية في البساطة».

انقاد خوان وراءها، وبحركة من رأسه أعلن عدم موافقته.

أنت شاب وهذا الوضع لن يدوم. سترى.

لكن خوان كان يواصل إعلان عدم اتفاقه بحركات فيها وداعة.

- أحضرت لك ساندويتشا.

لا أشعر بالجوع.

عليك أن تأكل. سحنتك ليست على ما يرام.

أنا بخير.

ما الأمر إذن؟

نظـر خـوان إلى هذيـن الكائنـين المؤدبـين اللذيـن يحدثانه ويعاملانـه كأنـه فـي ملكيتهما. كان خـوان ألعوبتهما، شـيء ما ينبغي أن يشـتغل عندما يضغطان علـى الزر، أن يتحرك عندما يدفعانه، أن يقف عندما يأمرانه بذلك. لهذا لم يتمكنا من فهم سلوكه.

قال: ذلك أنني قد تذكرت أمرا ما.

وارتكبت تلك المرأة خطأ باستفسـارها عما تذكره وجعله بهذا الشكل مريضا.

قـال لها خـوان إنه كان قد تذكـر الحقيقة، بـأن ابنها كان قد أعدم بشكل عادل لأنه كان مجرما، لا مجرم حرب، هذا التعريف

الـذي يختلف تقييمـه وفق الجهة التي ننتمـي إليها، بل مجرم مـن الصنف الـرديء، لـص، قاتل مدنيـين قصد سـرقتهم وبيع المسـروقات بعـد أن يتلاعب بها، مقدم خدمـات للمنحرفين، وما هو أدهى، خائن لشـركائه. وقد كان وراء سـقوط منظمات تتاجر بشـكل غير قانوني بالأدوية. ولكن، لحسـن الحظ، لم ينفعه في شيء كونه كان جبانا، إذ حوكم من طرف محكمة عادلة وتم إعدامه مـن طرف كتيبـة أكثر عدلا. ولم يكن موتـه بطوليا، فأنا – وفي هذه النقطة كان يكذب – كنت حاضرا أعطي التعليمات للكتيبة التي أعدمته. تغوط في في سـرواله، بكى، توسـل ألا نقتله، وأكد أنه مسـتعد لتقديم معطيات إضافية متعلقة بالمنظمات الموالية لفرانكو والموجودة بمدريد... كان مجرد خراء ومات كما كان. كل مـا حكيته لكـم قبل الآن كان كذبا. كذبت لأنجو بنفسـي، ولكني لم أعد أريد مواصلة العيش إن كان ذلك يشعركما برضا ما. الآن أريد أن أرحل.

كل هذا كان مثل برق، رجة جمدت نفس العقيد إيمار وزوجته. أنصتـا إلى ذلك الرسـم المنفلـت لابنهما وقد أنجـز بألوان تبين لهما بشكل فوري أنها ألوان الحقيقة. لا أحد يكذب ليموت.

لـم يبديـا أدنى اعتـراض على خروجـه من الغرفـة الصغيرة التـي دخلها منهـكا، والتي يخرج منها الآن وهـو يأمر الجاويش أن يقتـاده إلـى الدهليز. وبرغم أن ضابط الصـف بحث عن أمر مـن العقيـد، فـإن النظـرة الجامدة لرئيسـه المباشـر تم تأويلها على أنها بمنزلة موافقة. ومسـترجعا نعرة عسكرية شعر، بشكل مفاجئ، أنه ملزم بإظهارها، قام بدفع خوان صينرا وترك مسافة

احتياطيــة بينهمــا حينمــا كانــا يصعــدان الســلالم المؤدية إلى الدهليز الثاني.

لـم يتحدث خوان صينرا مع أحد. لم يقف في الصف ليأخذ الطعـام فـي صحفته. ظل صامتا في مواجهـة النافذة التي كان يحـدس، من خلال شـباكها، بوجود سـماء شاسـعة رمادية قادرة على إلغاء فصول الربيع.

يومان بعد ذلك، كان اسـمه الأول في لائحة مطلوبة للمثول أمام المحكمة. كان الأول في المثول أمام العقيد إيمار. كان أول من حكـم عليه بالإعدام في ذلك اليوم ولم تجبره لا تهديدات الملازم الثاني ريوبو ولا الضربات على الوجه من طرف السكرتير الأبهق راسم الرايات، على أن يلتزم بشيء شبيه بوقفة عسكرية.

وفي الفجر التالي، كان اسـمه الأول في لائحة من سـينزلون إلـى السـاحة. وعندمـا تجاوزت الشـاحنة التي كانـت تقله رفقة مسـجونين آخرين بوابة السـجن، نحو مقبرة ألمودينا، فكر خوان أن إدواردو لوبث سيكون أكثر هدوءا وهو يعرف أنه لم يكن هنالك أي سـبب ليظـل على قيـد الحياة. حـاول أن يخمن أيــة معايير سرية اعتمدها الملازم الثاني القسيس ليحجز الرسالة التي كان قد كتبها لأخيه وأحس بارتياح جراء فكرة أنه لن يتم بعثها أبدا.

وممـا منحـه باعثا إضافيا للشـعور بالسـكينة، تأكـده من أن تعويــج الفــم الدال على رضا ظـل من دون عقاب سـيختفي من وجه العقيد إيمار إلى الأبد.

فقط كفّ عن الكراهية عندما تذكر أخاه.

الهزيمة الرابعة: ١٩٤٢
أو أزهار عباد الشمس العمياء

أبانا المحترم، أنا تائه مثل أزهار عباد الشمس العمياء. وعلى الرغم من أني عاينت اليوم موت شيوعي، فما عدا ذلك، أبانا، فإني هزمت، ولهذا فإني أشعر بأني مثل سحابة غير مستقرة(*)... مثل ظل(*)، مثل ظل منفلت.

اقرأ رسالتي مثل اعتراف، وفي النهاية اعف عني، لكن إذا كانت خطيئتي، كما أخشى، من غير المقبول أن تكون موضوع عفو، صلِّ من أجلي، ففيما يتعلق بندمي، أنا نفسي لديَّ شكوك - هكذا هو شيطان جسمي - أما فيما يتعلق بتوبتي، فإن هذه الرسالة تسعى إلى أن تثبت أنها قد تمت.

كل شيء بدأ، أبانا، عندما التحقت، عملا بنصيحتك، بالجيش الوطني المجيد. حاربت ثلاث سنوات في الجبهة مشاركا في الحرب الصليبية، وعشت مع كائنات مجيدة وفظيعة، مع جنود مفعمين بأفكار مثالية وغرائز بئيسة، لكنهم كانوا يتوجهون إلى الله عندما يتعين عليهم أن يختاروا بين الهلاك والمجد. توحدت معهم وذبت فيهم. بالتأكيد، لم أكن نموذجا للقداسة،

(*) جميع الكلمات والتعابير المتبوعة بـ* هي باللاتينية في النص الأصلي. [المترجم]

فأمام فظاعة مماثلة تكون الغرائز، في آخر المطاف، مرساة الحياة. ومن واجب الجندي أن يعرف أن الأموات لا ينتصرون في المعارك. ساهمت بدمي في تحويل «الجبل المحروق» إلى «جبل تصفية».

طوبى للعادلين، لأنهم ما عادوا يريدون المزيد(*). والآن أتساءل، أبانا، ألن نطلب المزيد برغم أن علينا أن نطالب بالعفو بين الأموات، بين الفاشلين، بين الحطام الذي خلفته الحرب؟

ثلاث سنوات من نسيان الحياة، الحياة الشخصية وحياة الآخرين، تنتهي بأن يتحول المشارك في الحرب الصليبية إلى جندي، وجيوش الإله إلى فرق للمتمردين. تحتاج حياة من يظل على قيد الحياة إلى شيء آخر، بالإضافة إلى الحياة نفسها. الاحتفال بالانتصار على الشر هو عنصر آخر مكون للنصر. غضب الإله يمكنه أن يجعلنا نجن. أبانا، عرفت معنى الاشتهاء.

الاشتهاء هو مثل النمور التي تعيش داخل الإنسان، مثل الأفيون الذي يعرف، بكل براعة، أن يحرك جميع الأحجار، أن يرج كل إسمنت الروح. الاشتهاء، أبانا، سيادتك ستكون قد تعرفت عليه عبر معزل الاعتراف، هو شيء مدهش. يمكن أن يلقحنا بزهو مصدره ارتكاب خطيئة، وكذلك بالرضا الشرير الذي مبعثه جعلنا جسدا يستمتع وهو يرغب في أن يموت، فيطلق، برغم وضعه المهين، صرخة حياة بإمكانها أن تذيب السندان الذي يزعم الجندي أنه يشكل عليه سلاحه الفولاذي.

قد تكون الوقائع قد جرت كما يحكيها آخرون، لكنني أتعرف عليها فقط كمشهد تعيش فيه ذكرياتي. مازلت أتساءل كيف

كانت الأشجار عندما زرعوها، أو كيف كانت أمي وهي شابة، وأي مظهر كان لي عندما كنت طفلا.

كل ما ظل موجودا أثّر بالتدريج في ذكراه، لأن حضوره الفعلي غير متجانس مع الذاكرة، ولكن ما فقدناه في الطريق مازال مثبتا في لحظة اختفائه، محتلا مكانه في الماضي.

لهذا فما اختفى أعرف كيف كان، ما تركته أو ما تركني في لحظة من حياتي ولم يعد قط إلى حيث الواقعي يتأثر بالتدريج، وحيث وضعه الحالي يزاحم ماضيه.

ريما لهذا أتذكر أبي وهو شاب، طويل القامة، نحيف، وحيوي، يحيط بذراعيه أمي العجوز المرهقة والوديعة. أتذكر الراهب سالفادور بثوبه الديني والعسكري وهو يضايق أمي العجوز المرهقة والوديعة، وكذا رجال شرطة بذيئين وهم يشتمون أمي العجوز المرهقة والوديعة. ولكني أذكر على الخصوص طفلا تربطه تواطؤات كثيرة مع أمه العجوز المرهقة والوديعة التي لا أتمكن من أن أتخيلها كما قيل لي إنها كانت: شابة، مفعمة بالحيوية ووديعة.

آه ! هم كانوا يطمحون إلى تغيير نظام الأشياء، متجاهلين أن لا قوة تعلو على قوة الإله(*)، وكان علينا أن نلقن نظاما جديدا للأشرار، كان علينا أن نمجد نصرنا.

لما رجعت، أبانا، مدنسا بالمصائب والخطايا، باحثا عن العفو بالمدرسة الإكليريكية، ريما كان عفوكم سيكون أفضل من الاختبار الممدد الذي قررتم، أنتم أساتذتي، أن تخضعوني له. كان تكويني أعلى من أغلبية زملائي، ولكني قبلت بطيب خاطر أن

ألتحق كمدرس للأطفال وللمستوى الإعدادي بمدرسة صاكرادا فاميليا. قبلت رتبة الشماس في هيئة القديس الأب كابرييل تابوريت المتخصصة بشكل كامل في التعليم. ألتحق بهيئة أدنى لأنسى هذياني وأستعيد النور.

النور! أبانا، بكم من الحسرة أتحدث اليوم عن النور. كنت أحدث تلاميذي الأطفال عن النور لأنني كنت في حاجة إلى إيقاظ قلقهم المتبلد: «عدوا النجوم إذا استطعتم».(*) كنت أقول لهم، لجعلهم يحسون بضآلة حجمهم، إنهم من مستوى أدنى ومطالبون بالخضوع. لكن النور يتأخر كثيرا في اجتيازه للعتمة والألم! بأي إبداع عميق خلق الإله الألم! في الحقيقة، يتبين لي الآن أن ما أريد التحدث عنه هو الألم، ذلك أني تعلمت أن النور والألم يشكلان جزءا من التوهج نفسه.

بدأ كل شيء مع تلميذ غريب الأطوار كان ضمن الأطفال الذين أعلمهم. يعلم الإله وحده لماذا من بين مائتين وثلاثين تلميذا كان عليّ أن أنتبه إليه. جميعهم كانوا يعانون سوء التغذية، لذا فهزاله ما كان يعني شيئا. جميعهم كانوا مطيعين بشكل كبير، وخنوعين بشكل كبير، مما جعل بؤسه يذوب وسط هذه الشرذمة من الأطفال الخائفين الذين كانوا يعتبرون ثوب الراهب رمزا للسلطة المستعادة، الثوب الآخر لجيوش الإله. كان يلعب في الاستراحة، نعم، مثل أقرانه، ويظل صامتا في الصفوف مثل أقرانه، ويصغي في القسم مثل الآخرين... لكن شيئا ما كان يميزه ويبدأ يثير انتباهي بالتدريج. أول ما فاجأني هو تمكنه، بالرغم من عدم تجاوزه سبع سنوات، من القواعد الأربعة، في

حين كان زملاؤه يتلعثمون إزاء كتاب مبادئ القراءة محاولين ربط الحروف فيما بينها لتشكيل كلمات ما كانوا يتمكنون من فهمها. لورينصو، وهذا اسم الطفل، كان يقرأ باسترسال، بالطبع.

هيا لورينصو، إنها الثامنة.

بحث لورينصو بين الملاءات عن نتف الحلم الذي توقف.

سنصل متأخرين إلى المدرسة... سأعد لك الفطور.

كان فصل الشتاء ملتصقا بالشرفات مترصدا الهواء الفاتر ورائحة الهندباء المنبعثين من داخل المنزل. كان بإمكان لورينصو أن يتحمل كل شيء باستثناء الجوع لذا نهض بطواعية وتؤدة. لبس المعطف فوق المنامة وعبر الممر نحو المطبخ الموجود في الجهة الأخرى من المنزل. وكان أبوه، وقد ارتدى ثيابه من دون أن يحلق لحيته، يحاول أن يضمن على الأقل أن موقدا سيحتفظ بالحرارة الكافية لتدفئة الحليب.

- صباح الخير، يا بني.

صوت آت من الحلق وحركة لا حماس فيها كانا الجواب الوحيد للورينصو الذي ترك نفسه يتهاوى فوق الكرسي الوحيد الموجود بالمطبخ.

بالإضافة إلى الموقد الحديدي، كانت هنالك طاولة من الرخام موضوعة فوق كتلة من الحديد المنصهر مصبوغة بطلاء يشبه لون الذهب وحوض غسيل من الحجر الاصطناعي يشبه الغرانيت. وكانت صفيحة من الزنك فوق مخزن الفحم تستعمل كرف لما لا يحصى من القدور ومقلات مرتبة بشكل دقيق كانت

تلمع بفعل نظافتها.

كانت النافذة تفضي إلى فناء ضيق يسمح بتخمين ضوء النهار وبعض الستارات والمصباح المطفأ تحمي حميمية المطبخ. وفي الفناء، كانت أصوات متداخلة وخلط لا يتوقف للبيض تؤكد أن اليوم كان قد بدأ.

- اشرب الحليب

لم يكن خبز الجاودار يطفو. كان ينزل إلى قاع الفنجان الكبير الذي لم تكن له قبضتا يد، لكن الجوع كان قد تم ترويضه، مما كان يجعله ينتظر بحكمة أن تمتص كسر الخبز الجافة تلك الحليب وتصبح صالحة للأكل.

- أبي، لا أريد أن أذهب إلى المدرسة.

- ما الأمر؟

- إن الراهب سالفادور يترصدني...

ظل الحديث معلقا في الهواء، ذلك أن الأم، وقد ارتدت ملابسها، دخلت إلى المطبخ حاملة ثياب الطفل، وبحنان مستعجل وفعال، غسلت وجهه بفوطة مبللة بماء دافئ من قدر موضوع هو الآخر فوق صفيحة الموقد، ألبسته الجوارب وخلعت عنه المعطف وسترة المنامة لتلبسه قميصا من فانلة ذات لون رمادي. كان كل هذا يتم من دون أن يتوقف لورينصو عن تناول فطوره المكون من الحليب وخبز الجاودار. ثم ألبسته قميصا من الصوف الصفيق، ووجدت صعوبة لا بأس بها عند المرور عبر الرأس ومن دون أن ترفع، بالكاد، ابنها من فوق الكرسي حيث كان متهالكا، نزعت عنه سروال المنامة لتستبدله بسروال قصير

بدرع الصدر جاعلة إياه، بمهارة ممارس لألعاب سحرية، ينزلق تحت المعطف الصوفي إلى أن تمكنت من أن تزرر له الحمالتين. وصادفت نهاية الفطور عملية تسريح للشعر تمكنت بصعوبة من التحكم في زحمة بقمة الرأس كانت تمنح الطفل مظهرا شبيها بمن هم في حالة فرار. كان معطف من قماش أزرق محكوك من الكوعين ولفاع أخضر يغطي وجه لورينصو حتى العينين بمنزلة الإشارة إلى أن الوقت المسموح به كان قد انقضى.

- أسرع. سنصل متأخرين إلى المدرسة. امنح قبلة لأبيك.

كل الطاعة التي أبان عنها وهو يتم غسله وإلباسه وتسريح شعره في الوقت نفسه الذي كان يتناول فيه خبز الجاودار مع الحليب تحولت إلى حركة تعويج للفم فيها دلال وموجهة إلى أبيه.

- لا أريد أن أذهب إلى المدرسة، يا أبي.

- تكلم بصوت خافت فقد يسمعك أحد ما.

- يقول إن الراهب سالفادور مهووس بمضايقته.

- هذا صحيح. يطرح عليّ دوما أسئلة تلو أخرى حتى خلال فترة الاستراحة.

تبادل أبواه نظرات بتواطؤ خفي. وبرغم الاستعجال، فإنهما حاولا التقليل من أهمية فضولهما.

- وعماذا يسألك؟

- مثلا ما مهنة أمي، ولماذا لا تأتي أنت قط لمرافقتي إلى المدرسة... وإن كانت تعجبني الكتب... يسألني عن كل شيء.

- وأنت بماذا تجيب حينما يسألك عني؟

- بأنك ميت.

لديّ، أبانا المبجل، ذكرى عذبة عن طفولتي. خشوع أبوي وفضائل أساتذتي لقحتني منذ صغري حب الله. أحببته عندما كنت طفلا، والتحقت بالمدرسة الإكليريكية لما حانت لحظة تقديم حياتي للقديسة الأم الكنيسة. الآن أتذكر ذلك كأن جسمي لم يوجد قط، وكأن العنصر الوحيد في حياتي كان هو الاستعداد الفطري للتضحية. بعد ذلك تركتني موجة من التفاني والآلام على هامش الحياة، وبدأت تتشكل لديّ روح راضية راغبة في التملك البطولي للفضائل اللاهوتية والوصول إلى الاقتناع الراسخ بالإيمان وبالصمت الحميمي للتأمل.

ربما لذلك، أبانا، عندما قذف بي إلى الحياة، وهي دائما ملوثة بالرشوة والفوضى، فاجأتني وأنا عاجز، ذلك أنه إلى حين اللحظة التي رأيته فيها، لم أكن أعرف ما الشر، وأعتقد أن الشر نفسه كان على علم بذلك.

صحيح أني قبلت بطيب خاطر أن أتوحد مع الحرب الصليبية، ولو كانت ساعتي قد أزفت خلال المواجهة ما كنتم لتقولوا عني، أنتم والمقربون مني، إلا الشيء نفسه الذي قاله «الأب» عن «الابن»: التضحية هي لمن يرغب فيها (*). صحيح أنني أنا الذي رغبت في التضحية، لكن صحيح أيضا أنني لم أحدس قط بمدى الفظاعة التي كانت قد لحقت بالعالم. متبجح، مبتذل، كذاب، آثم وبطولي. وبالتدريج، بدأت أتخلى عن يقظتي كأني كنت بصدد خسران المعركة.

الآن يمكنني أن أتحدث عن كل ذلك، وإن كان التذكر يكلفني

الشيء الكثير، لا لأن الذاكرة قد ذابت، بل بفعل الدوار الذي تسببه لي طفولتي. أتذكر تلك السنوات باعتبارها شساعة قضيتها في مرآة، مثل أمر كان عليّ، لسوء طالعي، أن أتألم بسببه وأن أتأمله في الآن نفسه. في هذه الجهة من المرآة كان هنالك التغاضي والتظاهر. وفي الجهة الأخرى، كان هناك ما يحدث حقيقة. اليوم، مازال يخيفني ما أتذكره بخصوص الطفل الذي كنته، فمع مرور السنوات، تفرض قناعة محددة نفسها ومفادها أنني لو لم أكن طفلا لما حدث شيء مما كان سيقع.

كان هنالك عالم يسمى ألكالا ١٧٧، وكان الطابق الثالث، والمنزل حرف س بمنزلة قارتي الأرضية. كان هذا الكوكب ينتمي إلى كون شاسع ومراقب، وكان عبارة عن كتلة من المنازل مثلثة تحدها شوارع ألكالا ومونطيصا وأيالا. كتلة من المنازل ليس لها أربعة جوانب مثل الكتل الأخرى، ومع ذلك كانت هي عالمي! وبعيدا عنها كانت هنالك مجموعة من الكواكب الأخرى: شارع طوريخوس وغويا من جهة، ومن جهة أخرى عالم لافوينتي ديل بيرو الكئيب وساحة مانويل بيصيرا، حيث كان يقيم أطفال أكثر فقرا منا وكان يجمعنا بهم كره متبادل وغير مبرر، يجد تفسيره فقط في أنه في تلك الأيام كان كل شيء تابعا لراية ما: الأرصفة، الكرة، الخذروف، الممحاة والأصدقاء. بالإضافة إلى ذلك، أتذكر وجود سرداب رطب كان أقرب الطرق إلى مدرسة ساكرادا فاميليا، وقصر صغير كان يحتل زاوية شارعي نافاريس وأودونيل. ربع ساعة من المشي قطعتها، مرافقا أو وحيدا، آلاف المرات، ومع ذلك فإني أشعر بهذه الذكرى بعيدة عني إلى درجة أني لا أتمكن من

إعادة تشكيل تفاصيلها. في الحقيقة، فقط عند العودة إلى كتلة المنازل حيث أقيم كنت أستعيد الشعور بأنني قد عدت إلى عالمي.

ولكن من بين كل الذكريات، كانت أهمها على الإطلاق أنه كان لديّ أب مختبئ في دولاب.

اليوم أظن، أبانا، أن ما أثار انتباهي هو شيء يميزه عن الآخرين: كان طفلا حزينا ولكن بجدية لا تناسب سنه. في لعبه من دون نزاع، في طاعته من دون خنوع، في رغبته في التعلم وفي افتخاره بما يعرف، وفي صمته... ربما ذكرتني طفولته بطفولتي، وأردت أن أستحضر من جديد عبر ذلك التلميذ الطفل الذي كنته. فكرت أنه قد يكون قسيسا جيدا بكنيستنا. يا لطيبوبتي!

سجلت نقاطا أخرى تميزه: أتذكر أنه عندما كان كل الأطفال يقفون في الصف بطريقة عسكرية، قبل الخروج من المدرسة، وينشدون في المساء نشيد «الوجه مقابل الشمس» لتوديع يوم من التعلم البهيج، لم يكن لورينصو يتقاسم روح «السهم» التي كان يظهرها أقرانه. كان يلتزم، نعم، بالوقفة، ولكني ذات يوم اقتربت منه بشكل خفي من الخلف واكتشفت باندهاش أنه كان يرفع يده إلى الأعلى، ويحرك شفتيه ولكن دون غناء. كنا نطلب منه أن يعلن حبه لوطنه فيرد علينا بصمته.

عاقبته بأن منعته من مغادرة الساحة ما لم يغن النشيد بأكمله، ولكنه لم يغن. ظل منتصب القامة بذراع مرفوعة إلى الأعلى من دون أن ينطق حتى بالبيت الأول. لا أدري ما الذي تحكم فيّ أكثر، هل الغضب من تمرده أم سعادتي بالفرصة المتاحة لي لكي أخضع لسلطتي ابنا كافرا في قرن من دون

إيمان. «أنشد!» أمرته، «إنه نشيد من يريدون التضحية بحياتهم من أجل الوطن!» «ابني لا يريد أن يموت من أجل أي كان، إنه يريد أن يعيش من أجلي»، قال صوت ناعم وعذب وراء ظهري. استدرت وكانت هي.

الآن أتبين مغزى جملة القسيس: نظرة امرأة جميلة، ولكن من دون فضيلة، تحرق مثل النار. أنا كنت أجهل حينذاك أنه بتلك الطريقة كان يولد هذياني.

أنا ما الطفل وظلا صامتين في غرفة الأكل المغلفة بالظلام. كان الصمت يشكل جزءا من حديثهما لأنهما معا كان يخفيان شكاواهما. وعلى الرغم من أن نافذة غرفة الأكل، المطلة هي الأخرى على الساحة، كانت مغطاة بستار غليظ من ثوب قطيفة أزرق، إثر أزمنة أخرى، إذ قبل بيع كل ما يمكن بيعه، كان هناك صوان برؤوس محاربين من القرون الوسطى، وخزانة بصحون من الخزف الإنجليزي وحوت غريب من بللور مورانو بفم مفتوح، فقد كان الزوجان يظلان في الغرفة المضاءة فقط بالنور المنبعث من الممر، حتى لا ينتبه أحد إلى أن هنالك راشدين يعيشان معا بهذا المنزل.

كلما كان ضوء النهار أقوى من الضوء المنبعث من الداخل، تمكن ريكاردو من أن يتحرك باطمئنان أكبر عبر المنزل، متجنبا دوما أن يقترب من النوافذ والشرفات. كانت الغرف الواقعة في آخر البيت تطل على شارع أيالا، وفي الواجهة كانت هناك قاعة سينما الجزائر التي تكون فارغة في الصباحات. كان ذلك هو الوقت الذي ينتهزه ريكاردو، مع أخذ الاحتياطات اللازمة، لكي

يتأمل الشارع، يتأمل الناس الذين يعيشون ويعبرون مدينة ذات فضاءات عدة، محادثات، تحيات، حالات تقتضي السرعة وأخرى اختارت الاعتدال، كان يعتبر نفسه معنيا بها. ولكن لما كان يحل الظلام، لم يكن ريكاردو يدخل إطلاقا إلى غرفة مضاءة، كان ينتظر أن يتم إطفاء ضوء الممر ليذهب إلى الحمام. وكان يمشي في تكتم، حتى أنه في بعض المرات كان يحدث أن يخيف زوجته وابنه. كل شيء كان معدا لكي لا يحتل مكانا في الفضاء المضاء.

عليّ أن أهرب من هنا، أن أحاول العبور إلى فرنسا.

بحثت إلينا عن يدي زوجها فوق المائدة. لم تكن هناك حاجة لتكرر أن الوقت ما كان قد حان بعد، وأنه يتعين أن تخفت حرارة الانتقام، وأن حكومة فيشي كانت لا تتردد في طرد أعداد كبيرة من اللاجئين الإسبان، وأنه إذا تعلق الأمر بمشروع هروب، فسيهربون مجتمعين، هما الاثنان والطفل. وأنها لن تعود قط إلى الافتراق عما تبقى من أسرتها. كانت ابنتها الكبرى إيلينا قد هربت مع شاعر مراهق عند نهاية الحرب ولم يصلهم قط خبر عنها. لم يتجرأ حتى على السؤال إن كانت حية.

حامل في شهرها الثامن، هربت ابنتهما إلى مدريد قبل انتهاء الحرب بأشهر ذاهبة إثر شاعر في طور التعلم كانت هيئته تتغير حينما ينشد أشعار كارصيلاصو.

كان الفتى قد نشر بضعة أشعار في جريدة «عالم العمال» وفي بعض منشورات «الجيش الشعبي»، وكان يخشى أن يعدم بسبب ذلك. اختبآ بمنزل أولاليا، خادمة قديمة لوالدي إلينا، إلى أن أتيحت لهما فرصة الخروج من مدريد في شاحنة كانت

تنقل ماشية إلى بلد الوليد. لم يتلقيا أخبارا عنهما وإن وجدا عزاء في فكرة أنهما تمكنا من أن يعبرا إلى منفى ما.

الحديث دوما بصوت خافت يذيب الكلمات بشكل تدريجي ويختزل المحادثات في تبادل للحركات والنظرات. الخوف، بما أن الصوت يظل حاضرا، يجعل الأصوات غائمة، لأن الجانب الغامض من الأشياء لا يمكن التعبير عنه إلا بالصمت.

كنت ساذجا، يا أبانا، لأنني كنت أعتقد أن كل الأشياء كان لها اسم، أي أنها كانت مرتبة. كنت أظن أن ذلك كان أساس الانسجام. بالنسبة إليّ، كان كافيا أن أسمي الأشياء بأسمائها، أن أبحث عن المشاعر في معجم «التعليمات المقدسة» لمعرفة إن كنا نتحدث عن الغفران أو عن الهلاك. لكن هناك منطقة بين بين، أبانا، لا هي موجودة حيث الخطيئة وعقابها، ولا هي موجودة حيث الفضيلة وجزاؤها: إذا كان عليّ أن أرسم خريطة سأرسم مجالا واسعا معتما، وسأتجرأ، اعتمادا على الحق الذي يمنح للمكتشفين، أن أسميه إلينا. إلينا كانت هي، أم لورينصو. حيث توجد إرادة طيبة يوجد حب حقيقي، وحيث توجد إرادة مغشوشة، يوجد حب كاذب(*).. كان القديس طوماس سيفاجأ بتعقد خريطتي! هنالك جانب مضطرب في كل المناظر التي لا نستطيع أبدا اختزالها في جغرافية بسيطة. أبانا، توجد نقطة غامضة لم يتأملها آباؤنا: في المساحة الفاصلة بين الرصين والحقير هناك حقل شاسع غير محسوم يتنازعه الخير والشر، مجال ملتبس، الآن أعرف ذلك، هو ذاك المرتبط بالتحديد بأبناء آدم. أبانا، ينبغي أن يكون المرء الابن الأثير لدى الإله حتى لا يكون

مضطرا للاختيار بين الإلهي ونقيضه. أنا إنسان فقط، أبانا، ابن الخطيئة الأصلية واللعنة التي تستتبعها.

كان منزلي يتوزع إلى قسمين يفرقهما ممر. وكانت البناية كذلك مقسمة إلى قسمين: المنازل بشرفات مطلة على شارع الكالا، وكانت تقطن فيها العينة الراقية من الجيران، والمنازل الأكثر تواضعا وهي المطلة على شارع أيالا. نحن كنا نسكن بأحد هذه المنازل الأخيرة.

وعلى الرغم من أني أستطيع أن أصف ذلك المنزل شبرا شبرا، فإن ما لا أستطيع محوه من ذاكرتي هو النوافذ المترصدة بشكل دائم لحيواتنا والتي كانت تمثل الجانب الهش من راحتنا الأسرية. عندما كنا نتركها مشرعة، كان بإمكاني أن أتكلم بصوت عال فقط مع أمي، وليلا، كان يتعين انتظار خروج أبي من الحجرات لإشعال الضوء. كل هذه اللعبة، لعبة حالات الصمت والعتمات، كانت تترك مكانها لعنصر ثالث كان يجمد أي وضعية حينما يعلن عن نفسه: أزيز المصعد.

منذ لحظة انطلاقه إلى أن يصل إلى شقتنا في الطابق الثالث، ينقضي وقت كنا جميعنا قد استبطناه وقسناه بشكل دقيق. إذا ما توقف في الطابق الثاني، أو تابع إلى الأعلى، كان كل شيء يتواصل من النقطة التي توقف فيها. وإذا توقف في الطابق الرابع، لا يتجمد الزمن فقط، بل يتحجر الهواء كذلك، إلى أن نسمع رنين الجرس بأحد المنازل الثلاثة المجاورة لنا. من بين كل أنواع الضجيج، من بين كل الأصوات، من بين كل تعابير الحياة حولنا، كان لأبي ولأمي ولي أنا أيضا تصنيف دقيق لتلك

التي تنذر بخطر ما، ولتلك التي تندرج ضمن الأشياء الرتيبة. لا أحد كان يشير إلى حالات الصمت التي يسببها المصعد، كما أنه لا أحد كان يعلق حين يختبئ أبي، إذا ما طرق أحد الباب، بدولاب يوجد بتجويفة وراء خوان للزينة بمائدتين صغيرتين تتوسطهما مرآة. لم يصنع الدولاب قصد تأدية الوظيفة التي يقوم بها الآن. قبل اندلاع الحرب، ومستفيدين من اعوجاج يسم غرفة النوم التي تبدو الآن مربعة، صنع أبواي فضاء مثلثا محتجبا وراء حاجز إسمنتي كانت تستند عليه مرآة بإطار من خشب المغني الغامق تصل حتى الأرض، وكانت في الأصل بابا لدولاب كبير مركب بتجويفة. كان يسع إنسانا بشكل مريح، سواء كان جالسا أو واقفا، وكانت مفصلات الباب مخبأة بسبحة ضخمة بخرزات من الخشب مع صليب فضي بصورة مسيح مشوه ولكن بتعبير ألم كان من القوة إلى درجة أنني كنت أحرص ألا أظل وحيدا في تلك الغرفة.

بالإضافة إلى سريرين مطليين بالنيكل بمقدمتين مزينتين بأوراق معدنية من الدالية وزجاج مستطيل، كان هناك دولاب ضخم بثلاثة أقسام وبقمر ضخم في الجزء الأوسط أسعفني على أن أحلم في عالم كان يميني هو يساره والعكس كذلك. أذكر أن أبي عرّف حيرتي بأنها عبارة عن «وجهات نظر مختلفة لحظة رؤية الأشياء». بهذا الدولاب، كانت تحفظ ملابسي وملابس أمي. كانت تلصق بها رائحة النفتالين. أما ملابس أبي فكانت تخبأ معه في مخبئه. احتفظت برائحة هذا المخبأ وتعرفت عليه في المطابخ الفقيرة، في الأظافر المتسخة، في النظرات المنهكة،

لدى اليائسين من الشفاء، لدى من أهانتهم الحياة وفي أكشاك الحراسة بالثكنات. في السجون لا توجد هذه الرائحة، هناك رائحة المطهر ورائحة البرد.

شعرت بأني راع وسعدت بمعرفة أن من بين قطيعي كان هنالك ضالّون. كم كان من الصعب عليّ، أبانا، أن أعرف أنني كنت أنا الذئب! مثل بوسوي، قمت بتجميع كل معاناتي لأجعلهم يشربون أسرار الإله. ابتدأت في تصيد اللقاءات.

لم أعد قط إلى إلزام الطفل بأن ينشد برغم أن تظاهره ما كان يخفى عليّ. كان التلاميذ، حينما يتفرقون، يهجمون ناحية بوابة المدرسة. كنت أتتبع سلوك لورينصو، وفي أكثر من مرة أتيحت لي فرصة لقاء أمه. في البداية كنا نكتفي بالتحية، وعلى الرغم من أنها كانت تتهرب من محادثتي، فإننا بالتدريج بدأنا نتبادل بعض التعليقات بخصوص الطفل، وبعد ذلك بخصوص الطفولة الطائشة، حول مهمة المربي ومواضيع أخرى كنت أظن أنها ستؤدي بنا إلى الحديث عن حقائق الروح.

كنت ألاحظ، أبانا، أنني أستمتع حينما أكون إلى جانبها، ولكني فكرت أنه إذا كان الإله قد أراد منح الإنسان مرافقة مماثلة شبيهة بأول مخلوقاته، كذلك كانت إرادته بأن أحس بهذا الرضا الذي أحسه. كان لورينصو يلتزم الصمت وإن كان من المؤكد أنه كان يبحث بنزق عن نظرة أمه، لكني، بعيدا عن ملاحظة التواطؤات التي تجمع بينهما، كان يرضيني كذلك الحب الذي كانت الأم تلهمه لابنها. السمكة كثيفة وغامضة الكثافة وغامضة حتى أنه يصعب اختراقها، أبانا.

لا أنكر أنني تعرفت في إلينا على بعض ملامح حواء، ليست حواء الرائعة، النقية، اللطيفة، التي خلقت لتأسر قلب الرجل وتصعد معه في تحليق مشترك، بل حواء الساقطة، العارية والنادمة، وأول من أشاع الشر. وبرغم ذلك، أدرجت ضمن عاداتي مرافقة لورينصو وأمه خلال جزء من الطريق الذي كان يقطعانه للعودة إلى المنزل. كان هناك شيء في إلينا يحثني على أن أخوض معركتي الخاصة. كانت لحظات سعيدة تلك التي قضيتها برتبة شماس بتلك المدرسة.

لن يعود الطفل إلى المدرسة. قولي لهم إنه مريض.

هذا سيثير مزيدا من الشبهات.

ولكننا لا نستطيع أن نطلب منه أن يتحمل إلى ما لا نهاية مضايقات ذلك الراهب. علينا أن نلحقه بمدرسة أخرى، أن نفعل شيئا ما.

سنتحمل معا هذا المتطفل. لا تقلق.

كل صباح، كانت ممانعات الطفل لكي لا يذهب إلى المدرسة تتخذ أشكالا جديدة. في بعض الأيام كان يتظاهر بأنه مصاب بسعال جعله يقيء فطوره، وفي أيام أخرى كان يتظاهر بألم شديد في المعدة يبقي رأسه بين الركبتين بينما الأم تحاول إلباسه بكل لطف، ومرات كان يكتفي بأن يبكي باستسلام.

وفقط حين يصبح من البين أنه لا مناص من أن يذهب إلى المدرسة، كان يترك جانبا شكاواه ليتبنى مقاومة سلبية كانت تضاعف الوقت المطلوب لخطو خطوة، لتلقي قبلة، أو حفظ دفتر التمارين بالمحفظة الجلدية.

كانت إلينا، عند الوصول إلى باب المدرسة، تدفع ابنها بنعومة إلى داخل الساحة وتهمس في أذنه بجملة متواطئة:

علينا أن نكون قويين لمساعدة الأب. إنه في حاجة إلينا.

بعد ذلك، كانت تظل إلى جانب سياج البناية إلى أن تشرع جوقة من أصوات طفولية في غناء «جبال مكسوة بالثلج» أو أي نشيد وطني آخر. رتابة الغامض كانت تبدأ مع حنان هذه الأصوات التي تمجد ملاحم مجهولة بكلمات لا تفهم معانيها. كانت أزمنة ملتبسة ولا أحد كان يفهم ما يقع.

متدثرة بمعطف غامق اللون وبياقة من قطيفة واسعة ومدورة، عادت إلينا حتى تقاطع شارعي ألكالا وكويا لتستقل المترو الذي كان من عادتها أن تستعمله قاصدة أركييس، حيث، على بعد أربع كتل من البنايات، كانت توجد مقاولة هيليسيس، شركة إسبانية - ألمانية تابعة للدولة تقدم خدماتها لمقاولات أخرى من القطاع العام وتعمل في مجال الملاحة الجوية، ومن هنا تكليفها لنا بإنجاز بعض الترجمات.

هذا العمل، بالإضافة إلى تأمينه لبعض المال يخصص لمصاريف المنزل، كان يعطي لإلينا الحق في أن تأخذ من إدارة الإمداد والتموين بجيش الطيران قطعتين من الخبز الأبيض في الأسبوع كانت تتلقاهما بفضل بطاقة التموين المسجل بها اسمها واسم ابنها فقط.

كان الزوج، في الحقيقة، هو من يقوم بالترجمة، وكان بهذه الطريقة يخفف عن نفسه الإحساس بأنه عالة على زوجته وابنه. وكان استعمال الآلة الكاتبة ذات اللون الأسود ومن صنف

أونـدروود، مقتصـرا هـو الآخـر علـى الأوقـات التي تكـون إلينا موجودة فيها بالمنزل. وإذا خرجت، كان ريكاردو يقوم بعمله بشكل يـدوي ويـرقنه على الآلة الكاتبة في ثلاث نسـخ من ورق الكربون حينمـا تقـوم هي بترتيب المنزل بصمـت أو تخيط بيدها لأنه ما كان ينبغـي الجمـع بين صوت آلة الخياطة، التي كانت من صنف سـانخر ومصبوغة بالنيـكل وموضوعة فوق أرضية من الخشـب ومسـتندة علـى كتلة مـن الحديد المسـبوك بشـكل حديث، وبين صوت الآلة الكاتبة.

ولمواجهة متطلبات المنزل، كانت إلينا تعمل بدكان لمنسـوجات نسـائية تخاط على المقاس بشارع طوريخوس، وكان يحتفظ لها بالعمليـات التي تتطلب قدرا معينا من المهارة. كانت منتوجاتها تنعت دوما بالمتقنة، ومع ذلك لم تكن السـيدة كلوتيلد ترفع من قيمة أتعابها.

ذلـك اليـوم، لمـا عادت إلـى المنـزل حاملـة دراسـة كان ينبغي ترجمتها بشـكل مسـتعجل، قالت لها ماريا، حارسـة العمارة، إن رجل دين جاء لزيارتها وإنه، بالرغم من إخبارها له بأنها لم تكن بالمنزل، ألحّ لكي يصعد وظل فترة لا بأس بها يدق جرس منزلها.

هذا العالم كان مقسما بوضوح إلى قسمين: القاتم والمضيء. إلى القسم الأول كانت تنتمي المدرسة، أسئلة أساتذتي والصمت. إلـى القسـم الآخـر كان ينتمي جزء مـن حارتي وطريقـة أهلها فـي ربط صلات معي. ومع المسـافة، لديّ شـعور بأنني كنت مثل بنـدول، إذ كان بمقدوري أن أكـون في هذه الجهة أو تلك من دون أن أرتكب خطأ وذلك بفضل تعليمات المرآة.

بالمنزل كنا نعيش تواطؤا ثرثارا، وفي الشارع كنا نعيش صمتا ضاجا. كان عليّ أن أضع جانبا، حين أوجد بالخارج، ما كان أبي يعلمني بالمنزل وأن أسجل ما هو مهم فيما يقع بالخارج حين أوجد بالمنزل. وكانت العلاقة مع بقية أطفال الحي، مثلا، بمنزلة تمرين على توازنات محفوظة بشكل جيد.

وعلى الرغم من أننا كنا نذهب إلى مدارس مختلفة، فإننا كنا نعيش في كتلة منازلنا من دون أن نأتي بأي شيء من الخارج، ولا حتى بذكريات، ولا حتى بالخوف الذي يولده لدينا أساتذتنا. في زاوية شارعي ألكالا وأيالا، وهي الزاوية الحادة بكتلة منازلنا، كانت توجد عيادة لطب الأسنان عبارة عن متجر من دون مساحات عرض، بمصطبتين صغيرتين من الرخام في كلتا الواجهتين، واحدة بشارع ألكالا التي كنا بالكاد نستعملها لأننا كنا نعثر بها دوما على مخاط دم المرضى، والأخرى كانت بشارع أيالا الذي كان المنطقة الأقل استعمالا للعبور، لذا جعلنا من هذه المصطبة نقطة تجمع أطفال كتلة منازلنا. كنا نلعب ألعاب أطفال لا يملكون لعبا: لعبة عظم الكعب، لعبة الإنقاذ، لعبة السوط وألعاب أخرى كنا فيها الضحايا والجلادين، ألعاب كان العقاب فيها دوما مؤلما والجائزة هي إيلام الآخرين. كان ذلك شكلا آخر لمجاراة الأزمنة التي نعيش فيها.

كان جميع الأطفال كثيرا ما يتحدثون عن آبائهم. كان أحدهم، اسمه تينو، له مظهر جرو كبير وعينان مختلفتا اللون، وكان فخورا بأبيه لأنه كان مهيج ثيران بالإضافة إلى عمله بإحدى الإدارات. كنا نستمتع عندما كانت العربة الكبيرة

للفرقة تأتي لأخذ هذا الأب الذي يظهر بالبوابة، طويل القامة، رصينا بلباسه المثير الذي يلمع. أحد أفراد مجموعة الزاوية، بيبي أميكو، كان يتباهى باصطياد أبيه للطيور أيام الآحاد بباراكويوس ديل خاراما: بشباك في فصل الصيف وبمصيدة في فصل الشتاء. كان منزله الصغير والفقير مملوءا بأقفاص فيها طيور الكناري التي كانوا يغطونها خلال الليل لترتاح من تعب حركتها التي لا تتوقف خلال النهار. كنا معجبين بأب بيبي أميكو لأنه كان يملك دراجة نارية صغيرة ماركة خيليرا بمحول للسرعة في مخزن البنزين، ومهما كانت السرعة التي كان يقود بها، كان يتعين عليه أن يطلق يدا من المقود لتحويل السرعة، وكان هذا يبدو لنا أمرا باهرا خاصة أنه كان أعرج وله إضافة ضخمة بالحذاء الأيمن.

أتذكر كذلك الأخوين شابوري. كانت لهما اثنتا عشرة بقرة في الساحة الداخلية للبناية تسمح بتأمين احتياجات الحليب للجيران الذين كانوا يأتون للشراء بأوعية من الألومنيوم. كان الأب يحلب البقرات، وفي المرات القليلة التي سمح لنا بالمرور لرؤيتها، كنا جميعنا نفكر في الشجاعة التي يتطلبها حلب تلك الحيوانات البالغة الضخامة والتجهم.

بإمكاني أن أعد الأسباب التي جعلتنا جميعنا نعجب بآباء القاطنين بكتلة منازلنا. وكان هذا رد الاعتبار الوحيد الذي تلقيته عندما شاع خبر أن أبي ليس فقط لم يكن ميتا، بل إنه كان يرعاني من داخل دولاب.

الآن، أبانا، بقي لي فقط حطام الذاكرة. التبريرات الحقيرة

لسلوكي. عليّ أن أبدأ بالقول إني ما كنت أعرف سببا لشروعي في ملاحقة إلينا عندما كانت تترك الطفل بالمدرسة. لو أن أحدا سألني حينذاك لوجدت عذرا في أن شيئا غير واضح كان يلف تلك المرأة. لتبرير هذه الإجابة، لجأت إلى ملازم ثان مؤقت كان مكلفا بمهمة مأمور بوزارة الداخلية. عبره علمت أن ريكاردو دوماصو، زوجها، كان مدرسا للأدب بمعهد بياتريس كاليندو، ومسجل على أنه في حالة فرار. في سنة ١٩٣٧، كان أحد منظمي المؤتمر الدولي للكتاب المناهضين للفاشية حيث أعلن تبنيه للفكر الماسوني وتبجح بصداقته الشخصية مع الشيوعي أندريه مالرو والروسي إليا إيهريمبورغ. كان كذلك عضوا باللجنة التي أرسلت في سبتمبر ١٩٣٦ من طرف الحكومة الشيوعية إلى بيلموث لتحوير قرارات عدم التدخل المتخذة من طرف فيدرالية النقابات الإنجليزية. معلومات قليلة أخرى كانت متوافرة عنه فيما عدا أنه كان بالفعل متزوجا بإلينا وكان له ابنان، إلينا المولودة سنة ١٩٢٢ ولورينصو الذي كان له الآن سبع سنوات. وليس هناك دليل رسمي على أن أحدهما قد تم تعميده. توجهت إلى الأبرشية المعنية، أبرشية كوفادونكا الواقعة بساحة مانويل بيصيرا، ولم أعثر على شهادة التعميد لأي من الولدين. هما معا وُلدا قبل الانقلاب، ومن ثم لم يكن هنالك أي تفسير، بما أن هذه الأبرشية، بشكل معجز، لم يتم إغلاقها ولم تتعرض لأذى خلال ثلاث سنوات من الحرب المتواصلة. كذلك فوجئت بأنهم لم يشيروا إلى الأخت الكبرى، التي على الرغم من صغر سنها، كانت قد اختفت من حيواتهم.

قـد يذهـب الظن إلى أن أن ذكرياتي توجـد على هامش ذاكرة الخوف، غير أنه، وبالرغم من مجهودات والدي لكي لا أشارك في تلك الشعائر المتصلة بتوجسات مفروضة، كنت أنا أيضا أخشى أن تتمزق الفقاعة التي كنا نخفي بداخلها حياتنا اليومية المألوفة، وأن يتمكـن الخـارج، خارجهـم، مـن اختـراق حناننـا الصامـت وسـعادتنا المخبأة. أتذكر ذات يوم كنا نلعب لعبة بارتشـيس، وبما أننـا كنـا ثلاثة لاعبـين فقط فقـد كان أبواي يحرصـان على أن يكون ذلك امتيازا غير معلن لي بأن أحتل الحيز الثالث في رقعة اللعب مما يجعل قطعي في مأمن من الملاحقة، وفي المقابل كنت أنـا أجد قطعهما في متناولي. كنت أنا من عليه أن يلعب عندما شرع المصعد في التحرك. حدث ذلك ليلا، وكانت البوابة مقفلة، ولـم يكن هناك من يجرؤ على السـهر. كان يبدو أن لا أحد يعير اهتمامـا لصريـر المصعـد المتمايـل، ولكـن كل شـيء توقف عند رباطـة جأش كانت تبدو كأنها لا تبالي بما نسـمع وإن كانت تبرر كل هذا الصمت الذي ساد.

كان الوقـت متأخـرا وكان اليوم يوم سـبت. توقـف المصعد في الطابـق الثالـث. تحـول الصمـت إلـى سـكينة، والدلـو الصغير والزهر ظلا معلقين في الهواء إلى أن رن الجرس.

حوالي، بدأت حالة فوضى مخطط لها. توجه أبي بسرعة إلى دولابـه، وأزالـت أمي قطع لعبـه من طاولة اللعـب، قطعه فقط، وأنامتني، وكنت قد ارتديت منامتي، بأحد أسرة غرفة نومها.

مهما وقع، تظاهر بالنوم. قالت لي.

أعـادت وضـع السـبحة التي كانـت تخفي مفصـلات الدولاب

حيث كان يختفي أبي، وبعد أن تأكدت أن كل شيء كان في مكانه، ذهبت لتفتح الباب الذي كان يطرقه الزائر غير اللبق.

كانت الغرفة قد أصبحت مظلمة، وعندما فتحت أمي الباب للزائرين، عاد الصمت كأن لا أحد أفزعها، غير أني في تلك اللحظة تذكرت أننا، بسبب الاستعجال، لم نخبئ الأوراق الموضوعة فوق طاولة أبي. الآن أحكي هذا كأني أحكي عن شيطنات طفل آخر وأجد من المستحيل، لأن الخوف لا كلمات مرادفة له، أن أصف المجهود الخارق الذي كان يعنيه بالنسبة إلى ذلك الطفل الذي أحتفظ به في الذاكرة فتح باب غرفة النوم مع الحرص على عدم إحداث أي ضجيج، والذهاب في الظلام حتى طاولة العمل حيث كانت الأوراق التي كان يستعملها أبي حينما يترجم، أن أجمعها في صمت في الوقت الذي كنت أسمع فيه أصواتا جافة تشتم أمي في الجهة الأخرى من الممر، وفي الأخير أعود إلى غرفة النوم وأرمي الأوراق داخل الدولاب حيث كان يختفي أبي رفقة صمته. ما حزّ في نفسي بعد ذلك هو عدم تمكني من أن أحكي لأصدقائي عن براعتي.

منذ الصيف الذي انتهت فيه الحرب، لم تعد الشرطة لتفتيش منزل إلينا، ولكن خلال ليلة كانت الرتابة الأسرية تخفي فيها المذاق الحريف للخوف، قدم أربعة رجال محدثين ضجيجا يترأسهم أصغرهم سنا، بقميص أزرق ومعطف من نسيج رقيق، يضع يده على خاصرته ليطرح الأسئلة ويمسد شعره اللين وهو ينتظر الجواب. كان رجال الشرطة الثلاثة الآخرون يقدمون أنفسهم على أنهم صارمون في حين كان الشاب يعتبر نفسه رمز التأنق.

دفعا، أوصلوا إلينا حتى المطبخ، وتابع اثنان منهم التقدم عبر الممر في حين ظل إلى جانبها الشاب وشرطي آخر. بالمسدس موضوعا فوق طاولة الرخام، بدأ استجواب لا منطق له، كانت إلينا بالكاد تسمعه وكانت تجيب بمقاطع ليست دائما مناسبة للأسئلة لأن كل حواسها كانت تتابع الشرطيين اللذين كانا يفتشان المنزل.

عن الأسئلة حول إذا ما كان صحيحا أن زوجها كان مختبئا بمدريد، وإن كان زوجها قد مات، وإن كانت على علاقة براهب، وإن كانت ابنتها تمارس الدعارة ببرشلونة، وإن كانت لا تريد تجربة عنيفة مع رجال حقيقيين، وإن كان زوجها قد قتل راهبات خلال الحرب، وإن كانت منتمية إلى الحركة الوطنية، على كل هذه الأسئلة ردت بالإيجاب.

غير أنها أجابت بالنفي عندما سألوها إن كانت تعرف أن زوجها كان معتقلا بسلمنكا وأنه كان يعيش مع مومس بجنوب فرنسا، وإن كانت منتمية إلى الحركة الوطنية، وإن كانت تعرف من هو والد ابنها، وإن كانت لها اتصالات بالإمبراطورية البريطانية أو كانت تفكر في الهروب إلى روسيا لتجتمع مع زوجها الذي كان أحد أعيان الجيش الأحمر.

هذا الاستجواب الذي كان بالإمكان أن يتخذ، مثله مثل الإجابات، منحى مغايرا لو أنه تم طرحه بترتيب آخر، توقف عندما ظهر أحد الشرطيين بباب المطبخ وهو يجر لورينصو من أذنه. كان الطفل من دون حذاء ويمشي على أطراف أصابعه كأنه يريد أن يطير لكي يخفف الألم.

اترك عنك ولدي! صرخت إلينا وقد اندفعت لتأخذ ابنها بين ذراعيها.

وانطلاقا من تلك اللحظة دار الحديث بين رجال الشرطة الأربعة على شكل لعبة من البذاءات والوقاحات قيلت باستهتار وهم يتجولون بالمنزل عابثين بالدواليب والكتب وأواني المطبخ ولعب لورينصو وبكل ما كان يبدو أنه يحتل مكانا مناسبا. لكن برغم كل الوقت الذي قضوه في غرفة النوم معلقين على الإمكانيات اللامتناهية للسعادة التي يمكن أن تمنحهم إياها تلك الأسرة في حالة ما لو كانت إلينا امرأة حقيقية، لم يكتشفوا أنه، وراء سبحة من خرز خشبي، كانت هنالك مفاصل باب تفتح على دولاب يختبئ فيه رجل خائف من ألا يتمكن من حبس دموعه.

الحقيقة، يا أبانا، هي أنه كان يروق لي أن أراها تتحرك بين الناس، وهي تمشي خجولة ووديعة نحو منزلها بالخطو السريع لامرأة مجدة. في مناسبتين، تحايلت كي ألقاها ودعوتها إلى شرفة مقهى كانت تقدم شعيرا بالحليب وحلويات. وكان كشفي عن أفكاري يلقى دوما استجابة ملائمة من طرفها. كان كل شيء يبدو متناغما، وكنا مثل ملاكين قادمين من جوقتين مختلفتين. لم تكن بيننا أية نقاط التقاء وعلى هذا كان يتأسس تناغمنا. أنا كنت أفكر، وهي كانت تحس، وأنا كنت أحلل، وهي كانت تتألم من المرحلة المضطربة التي قدر لها أن تعيش فيها.

يفكر الرجل برأسه لكي ينزل الفكر إلى القلب حيث يعثر على القوة، بينما تتأمل المرأة بقلبها لكي تستعيد غريزتها

نـور العقـل. الآن أعرف أن طرائقهن لتوصيـل الحقيقة هي جد مختلفـة عـن طرائقنا وكذا أشـكال الوصول إليهـا. كنت أحاول كشـف لغزهـا، وهي تحـاول أن تقنعني بحسـن طويتهـا. إذا كان الرجل من نصيبه الأصوات اللامعة والفخمة، فإن المرأة تناسبها النبـرات الخافتة، اللطيفة والمحتشـمة. كانت تنسـجم مع نظام الكون.

كل هذا كان يخطر ببالي، أبانا، لتبرير أجوبتها غير الحاسمة، ممـا يقـوي كل مرة من وضع إلينا كشـيء مرغـوب فيه. قررت أن أقترب منها أكثر وأن أبحث عن التواصل معها.

- توقف عن الشرب، ريكاردو، إنك تقتل نفسك.
- الشرب هو ما يقتلني؟ لا تتفوهي بحماقات
- نحن في حاجة إلى أن نكون في كامل وعينا لكي...
- لنعيش كأننا غير موجودين. أليس كذلك؟
- لا، لكـي نعيش معا ونقاوم الوقت الذي يلزم. لا يعجبني أن يراك لورينصو حزينا إلى هذه الدرجة. من فضلك...

بحركـة سـريعة أخـذت الزجاجـة مـن فـوق المائـدة وقصدت المطبـخ لوضعهـا بالثلاجة. كان المنزل مظلمـا وكان ضوء خافت يتـرك فقـط إمكانيـة تخمين تخطيطـات الأشـياء. وبرغم أنها تعـرف المنـزل كما تعرف راحـة يدها، فقد كانـت هنالك لحظات تضطر فيها لتحسـس طريقها باللمـس. عندما عادت إلينا إلى غرفـة الأكل، كان الضوء مشـتعلا، وكان زوجهـا يطل من النافذة المفتوحـة على مصراعيها. وبرغم البرد، كانت كل النوافذ تقريبا مفتوحـة حتـى لا تتخلـل رائحـة الزبـدة المحروقـة والقرنبيط

المتحلل إلى فقرهم. كانت العاشرة ليلا وكان لورينصو قد نام منذ فترة.

كأنها تريد أن تحميه من لسان نار، ارتمت على ريكاردو بقوة جعلتها ترميه أرضا. هكذا ظلا، وهي ملتفة حوله بجسدها، إلى أن تبين لهما أن أصواتا أخرى وحالات صمت أخرى تشير إلى عدم انتباهها إلى ما وقع. لا شيء أثر في البرد.

ومن دون أن يبديا بالكاد أية حركة، أزاحا برهافة الهواء الذي يفصل بين جسديهما، وتشابكا إلى أن حجب أحدهما الآخر عن الليل ونظراته. مختبئين الواحد في الآخر تحدثا عن الخوف، عن لورينصو وشجاعته المتواطئة، عن إلينا الهاربة وعن ضرورة عدم الاستسلام للقنوط.

– ليس الأمر كذلك، إلينا، الأمر هو بمنزلة دهشة. ليس بسبب خسران حرب كانت محسومة يوم ابتدأت، الأمر شيء آخر.

– ما هو؟

– أن يريد أحدهم قتلي لا بسبب أفعالي بل بسبب أفكاري... والأدهى من ذلك، أنني إذا ما أردت أن أظل متشبثا بأفكاري يتعين أن أتمنى أن يموت آخرون بسبب أفكارهم. أنا لا أريد أن يضطر أبناؤنا إلى القتل أو الموت بسبب أفكارهم.

توقف عند تنهيدة صامتة ومخنوقة خرجت من حلقه، فبدأت المرأة تلمها بالشفتين، باحثة بلسانها عن عيني زوجها وضاغطة بالشفتين لصد البكاء. نقطة نقطة كانت تمتص ألم زوجها. وكذا حنقه.

نهضت إلينا، أغلقت النافذة وأطفأت الضوء. وهي تتحسس

طريقهــا، اقتربت من ريكاردو الذي كان لايزال جامدا في مكانه. أخــذت يديــه، وبلطف جعلتــه ينهض، ومــن دون أن تطلق يديها أخذتــه حتــى غرفة النــوم بعذويــة بدأت بقبــل ومداعبــات على الوجــه المبلل بالدمــوع وختمتها بأن أزالت عنــه كل ثيابه بنفس الرقــة التــي كانــت تلبس بهــا ابنهــا. كان عليها أن تعيد تشــكيل طريــق المداعبات كما في الأيام الخوالي، وأن تلهث بشــكل خافت لتستعيد العواطف المدفونة في زوايا الخوف. عملت على أن تبدأ يدي ريكاردو البحث عن أســرارها وانتهت راكعة لتنادي بشفتيها علــى الصلابة المختفية تحت كل الأحزان. عندما تلقت الجواب، علــى الأرض لتجنب صرير الســرير، انغلقــا أحدهما على الآخر في تراكم من حالات التملك التي حدثت من دون لهاث، من دون صــراخ، من دون قول «أحبك»، وذلك قصد مواصلة الحفاظ على سر الحياة.

من الأمور التي تثير دهشــتي بشــكل كبير، كوننا جميعا ، من دون أن نرغــب في ذلك، كانت لدينا ذكريات حول الحرب الأهلية، حصــار مدريد، هول القنابل والقذائف. ومع ذلك لا نتحدث عن ذلك مطلقا.

في المدرســة، أســماء مثل فرانكو، خوســي أنطونيو بريمو دي ريفيــرا، الكتائــب، الحركة، كانت قد ظهرت بشــكل فجائي، نزلت مــن الســماء لتقيــم نظاما بــدلا من هــذه الفوضــى، لتعيد إلى البشــر المجــد والرصانــة. لــم يكــن هنالــك ضحايــا، كان هناك أبطــال، ولم يكن هنالك موتى، بل الذين ســقطوا من أجل الإله ومن أجل إســبانيا، ولــم تكن هنالك حــرب،لأن النصر، حين كان

يكتب بحروف التاج، كان أقرب إلى قوة الجاذبية منه إلى حل نزاع بين البشر.

من بين مجموعة الأصدقاء الذين كانوا يشكلون جزءا من ذلك العالم، واحد منهم فقط، خافيير رويث طابيادو، كان يرتدي أحيانا لباس السهم. كان عمره ثماني سنوات ويبدو كرجل صغير، يتحدث بصوت غليظ، وبخصلة شعر لا تتحرك بفعل ملمع الشعر، وطريقة لباسه تعكس الرفاه الذي تعيش فيه أسرته. كان منزله دافئا ومضيافا، وليكرس زعامته كان هناك أخوه الأكبر، كارلوس، الذي كان يحكي لنا قصص رعب، بشغف في الوقفات الوصفية، بمهارة في خلق المواقف المخيفة، ولا زلت إلى اليوم أعجب من قدرته الفائقة على ارتجال حكايات.

على ضوء شمعة كانت تمنحه ملمحا شبحيا، متحدثا بإيقاع ومضمنا كلامه تناغمات صوتية تثير الرعشة، كان يبتدئ قصته دوما وهو يحدثنا عن وقائع رهيبة كان قد شهدها.

كانت شخصياته الرئيسية دوما مجموعة من الأطفال في عمرنا ملاحقين من طرف جيش من المصابين بالبرص يتحركون ببطء، باعثين رسائل تهديد وباحثين عن أحشائنا كأنها إمكانيتهم الوحيدة للبقاء على قيد الحياة. لم يكن البرص مرضا معديا، كان مرضا يصيب الروح. وخطورته لا تجد قوتها في إمكانية أن يعدي ولكن في شراهته لأكل اللحم.

ترددت كثيرا قبل أن أكتب هذه الرسالة. والآن لديّ رغبة في عدم إنهائها. لكني أريد أن أحكي الحقيقة لأتمكن من معرفتها، لأن الحقيقة تهرب مني كما يفعل ماء المطر بين أصابع الغريق.

مـا أعجـز عن العثور عليـه، أبانا، هو الندم ، فـلا أحد علمني أن أميز بين الحب والشهوة، وأنا كنت أظن أني بدأت في التعلق بها.
كانـت الطبيعة، في نظري، هي علة الزلزال الذي كان يحدث في روحي، وإن كان هذا قد حدث فيما بعد.

خلال سنوات عديدة، لم يفارقني الخوف من مرضى البرص، ومـا كان فـي متخيل أطفـال آخرين غولا أو عفريتا أو سـاحرات ذوات مكنسات، كان بالنسبة إليّ يتجسد في تلك الكائنات المدمية التي تمشـي ببطء ومن دون توقف وتتبعني لتأكل أحشـائي وهي تفقد مزقا من لحمها.

بقـدر ما كانت الشـهور تمر، بقدر ما كان ريكاردو يمسـي أكثر انطواء على نفسـه. كانت إيلينـا تلاحظ أنه يتأثر حينما تحكي له عما يقع خارج تلك الجدران، وبدأت تتحاشى التعليق على ما كانت عليه الحياة فيما وراء باب المنزل.

أن تكـون المدينة قد أعادت خلق رتابتها بعد ثلاث سـنوات من الحصـار، أن يتصرف الجمـيع كـأنه لـم يخسـر معـركة، أن لا يكمن تواطؤ أصدقائه القدامى في رفض الهزيمة بل في مسح الصفحة والبدء من جديد، كان ذلك بكل بساطة يهيجه.

شـيئا فشـيئا بدأ يصغر ويحني رأسـه أكثر. اختفـى في أيام معـدودات الرجـل الـذي كان يعتني بنفسـه، إذ توقف عن حلاقة ذقنـه، مهمـلا حالتـه، تحـت وطـأة الغيـاب الرصاصـي للرغبـة وحالات شرود لا يمكن اختراقها.

نـادرا ما كان يظهر من جديد الرجل المسـتقيم والحازم الذي أسر إلينا في أزمنة كانت للكلام فيها أهميته لأن به كان يتم بناء

الفكـر، ونـادرا ما كان يبرز المفكـر الذي كان ينظـر إلى الطريقة التي تجعل مشـروعا جماعيا قابلا للإنجاز، والمثقف المقتنع بأن ما هو إنساني كان هو الشيء الوحيد الأساسي. بدأت الكفة تميل إلى جهة الرجل الساكن، الساعي باطراد إلى أن يتحول إلى كائن لا مرئـي، إلـى أن يحتل كل مرة مكانا أصغـر في الفضاء. وحتى عندمـا كان يوجـد وحده بالمنزل، كان يظل سـاعات وسـاعات في الدولاب.

وحـده الحنان الفائق لإيلينا واقتراحاتها الرقيقة لأن يفعل، مـن فضلك، هـذا أو ذاك، إلحاحها لكي يتم ترجمة ميلتون التي بدأهـا فـي عز الحـرب أو أن ينقل إلى الـورق آراءه حول الابتذال الشـعري للشـاعر لوبي دي فيـكا وآلاف الطلبـات الأخرى حتى يعـود الأسـتاذ الذي كان، وحده هـذا كان بإمكانـه رد البريق إلى عينـين مثقلتـين بالظلمـة، ويزداد نسـيانهما من طرف المشـهد العام.

فقط عند وجود لورينصو بالمنزل، كان يظهر من جديد الرجل ذو العزيمة، القادر على إغراء وتسلية طفل تكسوه الهموم.

كنت أحرص على ألا أدعو أحدا إلى المنزل حتى لا يضطر أبي إلى الاختباء في الدولاب، غير أن أمي، عن حب أو بشكل مقصود، كانت ترتب لي سلسلة من اللقاءات مع أصدقائي بمنزلنا. وحين كان يحـدث هـذا، كان أبي يغلق على نفسـه في دولابه مع قنديل غاز وبضعة كتب إلى أن يذهب الجميع. ولحسن الحظ، فكل من حارسـة العمـارة الذميمة والبذيئة وزوجها كاسـطو عامل البناء المسـلول والشاحب كانا ينفجران غضبا كلما رأيا طفلا ليس من

أبناء العمارة المحروسة من طرفهما بغيرة كبيرة، مما كان يحول دون الزيارات غير المرغوب فيها لأصدقائي والارتباك الذي كان يخلفه قرع جرس الباب.

لا يمكنني أن أنسى كيف أنه ذات مرة، وكان اللقاء بمنزلنا، شعر أبي بمغص واضطر إلى الذهاب إلى الحمام على وجه السرعة. وبرغم أن باب غرفة الأكل كان مغلقا، فإن أحد الأطفال رأى ظلا يعبر الممر. ولتتخلص أمي من المأزق، وجدت حلا للوضعية في أن تتحدث عن شبح كان يأتي من وقت إلى آخر لزيارتنا. بالطبع، جمد التفسير الدم في عروق الحاضرين، لكننا كنا على درجة من الاستعداد لتقبل الخوف، وعلى درجة من التعود على صور الجحيم، وعلى دراية جيدة بمعنى النحس وساكنيه، جعلت الجميع يقتنع بالتفسير. تابعنا لعبة الطاولة وبعد فترة وجيزة سمع صوت حوض ماء المرحاض الذي، وهو يمتلئ من جديد، كان يحدث دويا ينتهي بصفير يشبه هبوب الريح. أشلت الدهشة والخوف حركة الجميع، غير أن أمي اكتفت بالتعليق بنبرة طبيعية: «دوما يفعل الشيء نفسه هذا الشبح. يطلق الماء ويذهب». خيم إحساس بالارتياح على أصدقائي وتابعنا اللعب.

ما هو متعال يتضمن قدرا من الحنان لا يمكن تحديده ولا تصله الكآبة(*)، كما يمكن أن يقول الشاعر، وهو هبة الدموع الرائعة. دموع رأيتها تزهر، أبانا، في عيني إلينا ذات يوم تبعتها فيه، بعد أن أوصلت ابنها إلى المدرسة، حتى منزل بشارع طوريخوس اقتحمته بشكل فجائي مدفوعا بفضول شرير، أعترف بذلك. شرعت في ملاحقتها لا قصد مراقبتها

بـل لأسـتمتع برؤيتهـا لأني إلـى الآن، بعد أن أخمـدت الأحداث التـي ما كان بالإمكان تجنبها لهب النار(*)، مازال قلبي ينخلع حينما أتذكر إيقاع مشيتها المتمهلة.

دخلـت بناية ببوابة مهيبة وأسـعفني الوقت لمعرفة أن المصعد توقف بالطابق الرابع. كان الأمر يتعلق بورشـة لخياطة ملابس أنثويـة داخلية كانت تهيأ بطلب من نسـاء شـبقات يشـكلن، من دون شك، الحلقة الأكثر مجونا في مجتمعنا. كانت إلينا تتلقى مقابـلا ماديـا عـن كل وحدة تخيطها لهـذه الورشـة، وينبغي أن أعتـرف أنني شـعرت ببعـض الغضـب عندما رأيت تلـك اليدين اللتـين خلقتا لمداعبة الأبناء والأقربـاء وهما تضيعان في إنجاز تلـك الأعمـال التافهـة. لا أسـتطيع أن أفسـر لمـاذا، وأنا محاط بتلـك الدمـى الوقحة التي كانـت تقاس عليها الثياب، أمسـكت يديها بين يدي وأخذتهما حتى لامسـا وجهي وأنا أهمس لها أن اللـه خلقهمـا لمهام أكثر رفعة. لم تبعدهمـا، أبانا، واعتقدت أنها كانت تفهم مرادي. تركتهما ثابتتين فوق وجهي وشـعرت بنسـيم ملمسـهما وهو يغزو إسـمنت اختياري الكهنوتـي، مغيرا ملامح مشروعي وجاعلا من كوني شماسا أمرا غير واضح.

عندمـا نظرت إلى عينيها، وسـط جمود الخياطات الحاضرات اللواتي كان لباسي من دون شك يولد لديهن شعور احترام عميق، وجدتها تبكي في صمت. على ماذا كانت نادمة أبانا؟ أم أنها كانت، كمـا ظننـت في تلك اللحظـة، متأثرة إلى حد كبيـر بعاطفتي؟ الآن أعـرف، أبانـا، أن دموعها لم يكن مردها إلى شـيء من ذلك، لكن، يا لحسرتي! تعين أن يموت إنسان لأفهم ذلك.

نطقت متلعثما بذريعة ما همني أن تكون تافهة لأبرر وجودي بذلك المنزل ورجعت إلى المدرسة راضيا عن نفسي إذ إنني، على طريقتي، قلت لإلينا إنني كنت مستعدا لحمايتها. إن لم تقبل فستكون مغفلة مثل التمثال الذي يرفض قاعدته.

- هل تحب أمك كثيرا؟

هز لورينصو رأسه موافقا. داعب الراهب سالفادور الطفل علامة استحسان. على الأقل مائة من التلاميذ كانوا يطوفون بالساحة مشكلين حشدا ضاجا وتحكمه فوضى هم الوحيدون الذين كانوا قادرين على فهمها. وبما أن الفضاء لم يكن كافيا لهم جميعا، فقد كانت المجموعات هي التي تتداخل وليس الألعاب، إذ إنهم كلهم كانوا يعرفون مع من وضد من يلعبون.

- أوَلا تتلقون رسائل من أبيك؟

هز ريكاردو رأسه علامة النفي.

- لماذا؟

- لأنه ميت.

داعب الراهب سلفادور مرة أخرى قفا الطفل وهو يتحدث عن مشيئة الرب وعن مقاصده التي لا يمكن الكشف عنها وأشياء أخرى لم يفهمها لورينصو.

- ولا أحد يساعد أمك؟

- أحيانا تأتي السيدة أولاليا. ولكنها هي الآن في السجن.

- ولماذا هي في السجن؟

- لأنها تلاعبت بأسعار الخبز.

أخيرا قال شيئا صحيحا. كانت أولاليا امرأة سمينة، عريضة وطويلة وقد رسمت سنواتها التي تجاوزت الستين على وجهها تجاعيد متناسقة تمنح نظرتها الزرقاء بريق جمرة وتجعل ابتسامتها تشبه نقشا على جوهرة.

كانت تربح قوت يومها بصعوبة بالعمل خادمة، وكان نظام المنازل التي تشتغل فيها من الصرامة بحيث كانت تتمكن من العمل فقط في المساءات.

عندما كان الجوع يتجاوز قدرتها على المقاومة، كانت تطلب من إلينا قطعة من الخبز الأبيض لبيعها بسوق التموين الذي كان يوجد بشارع هيرموسيا.

كانت إيلينا، التي تعرف أولاليا منذ أن كانت طفلة لأنها عملت دوما في منزل أبويها، تعطيها الخبز وتلتزم بزيارتها في سجن النساء بلاس فينطاس.

كانت أولاليا، بتنورتها القروسطوية وشعرها الأبيض، تتزين ليراها الحراس، وكان كل احتجاز يعني وجبتين يوميتين خلال عشرة أو خمسة عشر يوما وذلك وفق درجة الوقاحة التي تبديها إزاء حزم المفتش.

أيام الخميس، في السادسة، كان إلينا ولورينصو يقفان في الرصيف المقابل لسجن النساء وكان منديل يهتز بين شباك كوة لإطلاق الأسلحة بمنزلة الإشارة إلى أن أولاليا كانت بصدد استعادة قواها لتواصل الحياة بعد خروجها.

كانت عينا لورينصو مركزتين على مجموعة من الأطفال يلعبون الكرة. وبحركة تلطف، ترك الراهب سالفادور الطفل

يلتحق بأقرانه، وظل يتتبع كيف اندمج في لعبة لا يفهم قوانينها سوى اللاعبين. لا يعرف لماذا، لكن إجابات الطفل أفعمته سرورا إلى درجة جعلته يتغاضى عن معاقبة طفل بلا أسنان بصق في وجه زميل له كان قد انتزع منه دوامة.

الصرخات، لعب الأطفال المتحمس، الشمس ملطفة جوا شفافا، سلامة طوية متضمنة بإجابة، النظام الطبيعي لكل شيء، الزمن وقد سطر في مواقيت، القطيع وراعيه، التراتبية، كل هذا أرجع إلى الحاضر المذاق الذي كان له فيما قبل حينما لم يكن بعد منتصرا بل صانعا للنصر. شعر الراهب بأنه كمن انتقل من وضعية حرمان من الميراث إلى وضعية ورث فيها الأرض بأكملها. خطرت بباله هذه الفكرة: «سيكون العياء قد لحق بهم». ومن دون مقدمات، عبر تلك الساحة متمتما: لا نرغب في المزيد(*)!

بألكالا، بالمنزل رقم ١٧٩، كان يعيش شخص مقلق: سيلفينين. كان نسبيا أكبر سنا من بقية أعضاء المجموعة، لكن فارق السن لم يكن ليبرر نفوره منا. كان ذا شخصية صلبة، مائلا دوما نحو الأمام إلى درجة كان يبدو معها كأنه يمشي فقط ليحافظ على توازنه. نادرا ما كان يندمج مع مجموعتنا. كان أبوه رجلا لا يثير الانتباه لولا رفقة زوجته التي تنبه إلى حضوره، برغم أنها لم تتميز بجمال خاص، وإن كانت نموذجا للوداعة، ومازلت أذكرها كملجأ صامت إزاء تجهم الراشدين المتحكمين حينذاك في عالمنا. كانت تكتفي بالتحية في حين أن زوجها، من فرط خسته، ما كان يكلف نفسه عناء القيام بذلك.

كان لسيلفينين جدية أبيه ولون العينين الزرقاوين وابتسامة أمه: كان يفرض علينا احترامه. أتذكر أننا كنا في مناسبة ما مجتمعين كلنا حول مصطبة عيادة الأسنان المؤدية إلى شارع أيالا، فمر أمامنا قس من كنيسة كوفادونغا، كائن قميء ومتسخ، بورم في الجبهة وشفتين مرتخيتين ودائمتي البلل ترشان ريقا عندما يلقي خطبه ضد الخطيئة في قداس الأحد، وكان يجمع رغوة كثيفة بيضاء بشدقيه وهو يهمهم بصلواته. جميعنا، وامتثالا لما تعلمناه في المدرسة، سارعنا إلى تقبيل يده التي، دون أن يتوقف، تركها بفتور تحت رحمة احترامنا المجامل، جميعنا باستثناء سيلفينين الذي سألنا عندما اجتمعت المجموعة من جديد: «هل تظنون أن الرهبان لا يغسلون مؤخراتهم؟»

ضحك الآخرون لدعابته، أما أنا فقد شعرت بخوف لا عقلاني من أن يكتشف السر المحفوظ بمنزلي، وفي الوقت نفسه شعرت بتواطؤ حميم مع ذلك الجار. الآن، لا يمكنني أن أقول لماذا، بما أن أبوي، إن لم تخني الذاكرة، لم يحدثاني قط لا عن الكنيسة، ولا عن الإكليروس ولا حتى عن الدين الذي بتحوله إلى مادة للتاريخ المقدس وقواعد الدين، يصبح ببساطة شيئا عليّ استظهاره، مهمة كانا يشاركان فيها أحيانا، وهذا ما جعلني أستنتج أن أبويّ كانا يخشيان تلقيني ما كان يعتقدان، وأنا كنت أخشى أن أعرف ما يعتقدان. كان ذلك شكلا آخر من التواطؤ مثله مثل الدولاب الذي يعيش فيه أبي أو ترمل أمي. كل شيء كان واقعيا ولكن ليس حقيقيا بالمرة.

هل من المفروض أن تكون لحظة التنازل هي التي تعرف قطف الأزهـار المولـودة بشـجيرة الحياة الشـائكة؟ تسـاءلت بيني وبين نفسي. وهل يمكنني أن أتحول إلى الشجرة المتينة التي انتصبت بفعل التأرجح بين الخطايا وإعلانات الندم، بين الضلال والعودة إلـى الطريق القويم، بـين العجرفة والإهانـات؟ أعترف أمامك، أبانا، بعد كل هذه السـنوات من فصول الشـتاء وحالات الجفاف، أني تتبعت كيف تتشـكل داخلي براعم زهـرة قادرة على أن تثمر. فكـرت فـي التخلي عن وضعي كراهـب وأن ألتحق بالقطيع. كان قد انقضى أكثر من ستة أشهر على حديثي الأول مع إلينا، وتمت لقاءات أخرى، عن سابق ترتيب أو بالمصادفة، اختبرت فيها قيمة مشـاعري وكـذا، كما حكيت مـن قبل، متانة هـذه الصداقة التي أتعهدها.

فقدانهـا لزوجهـا الذي، برغم أنه ينتمـي إلى طائفة المكبلين بمنطقتنـا التاريخي، هو بالإضافة إلى ذلـك أب أطفالها، انعدام أخبـار ابنتهـا إلينـا التي رمت بهـا الحرب العاصفـة إلى الأرض المجهولـة الصامتـة، والضـرورة القاهرة إلى أن تدفـع إلى الأمام برعمـا حيـا لكـن حزينا فـي الآن نفسـه، كل هذا وأشـياء أخرى كثيـرة كانت تفسـر عذويتهـا المنفلتة، عدم اسـتعدادها للحديث عن أي شـيء باسـتثناء الحديث عن ابنها، سرعتها في وضع حد للقـاءات والحياء الذي كانت تحس به عند حديثها عن نفسـها. حينها كنت، أبانا، أبرر ذلك السلوك مسميا إياه وقارا.

ذهبت إلى منزلها عدة مرات خلال ساعات الدراسة طمعا في أن تتـاح لي فرصة الحديث عن مقاصدي، ولكنني ما كنت أجدها

قط هناك. ربما كان من المفروض أن يجعلني هذا المعطى، المثير للشكوك بالنسبة إلى امرأة،آخذ احتياطاتي، غير أن ذهولي إزاء احتمالات تنمو بشكل طارئ في مستقبلي لم يسمح لي بأن أحلل الطابع غير العادي للوقائع.

برغم أن مهمتي بالمدرسة كانت ذات طابع إداري، وخرجاتي كانت تبررها أساسا الحاجة إلى جمع تبرعات تضمن السير الجيد للنظام، فقد وبخني الراهب أركاديو، رئيسنا، بسبب سلوكي المستهتر. كان على صواب. أصبحت الصلوات تبدو لي كأنها لن تنتهي، ولم تعد الشعائر الدينية تولد لديّ القلق المفروض أن يحس به كل مخطئ أمام عيني الإله، وثق بي، أبانا، من كل الساعات التي أقضيها متعبدا فقط كانت تبقى بذاكرتي جملة واحدة من المزامير: كنا نرددها.

توقف المصعد في الطابق الثالث. كانت إلينا بالمطبخ تغسل عدسا وتجمدت كأن ما تقوم به يحدث ضجة. أما ريكاردو، الذي كان منشرحا لأنه عثر أخيرا على ترجمة مرضية لبيت شعري صعب لكيتس، فقد ترك أصابعه معلقة في الهواء فوق حروف الآلة الكاتبة كأنه بوغت وهو يقوم بشيء ممنوع. وحدها ساعة حائط غرفة الأكل ظلت تتحرك بعد أن رن الجرس.

كل هذه السكينة تحولت إلى رتابة قلقة وصامتة. عبرت إلينا الممر بصمت إلى أن تأكدت من أن ريكاردو كان يتهيأ للاختباء داخل الدولاب. عدلت من وضع السبحة التي تحجب المفصلات، وقصدت الطاولة التي كان يشتغل عليها زوجها وسحبت كل ما كان مكتوبا باليد. فتحت الشرفة بشكل

كامـل لتتيـح الفرصـة للربيع كـي يدخل، ومع الحـرص على ألا تحـدث أي صـوت، ذهبت حتى باب الدخـول. ظلت تتنصت منتظرة صوتـا يخبرها عن هوية الزائر، لكن فجأة رن الجرس مـن جديـد واهتـز جسـدها إلـى درجة أنهـا لم تتمكـن من أن تتجنب إطلاق صرخة مقموعة.

كان الطـارق هـو الراهـب سـالفادور بوجهـه المـدور وصلعتـه الخفيفة، في الجهة الأخرى من العين المعدنية مبتسـما وشفتاه مغلقتان وعيناه ليستا مفتوحتين بشكل كامل. كان يقوم بحركة يريدها جذلانة ومستعطفة. فتحت إلينا الباب ودخل وهو يرتل: مساء الخير، مساء الخير، مساء الخير...

فقـط بعـد أن تجـاوز العتبـة سـأل إن كان بإمكانـه الدخول. وحينهـا أغلقـت إلينـا الباب وهي تقـول: «تفضل أيهـا الراهب». ورافقتـه حتى غرفة الأكل. لم تدعه إلى الجلوس لكنه جلس مع ذلك مشـيرا إلى الحر الشـديد الـذي يولـده رداؤه. وقد عرضت عليـه أن تعطيـه كأس مـاء لكن وجه الضيف اسـتعاد ابتسـامته الجذلانة ورد قائلا: «أفضل بعض النبيذ».

عندما عادت إلينا من المطبخ حاملة زجاجة وكأسـا، كان رجل الديـن يتفحص كتبا أخذها من الرف. قال شـيئا ما غير واضح عـن القـراءة والوحـدة ورفع الكأس التـي قدمتا له مـرددا «على نخبـك إلينا». شـرب جرعـات صغيرة وسـريعة لينتهـي بتلمظ مبتذل مع تنهيدة مطولة أرادها مديحا لنبيذ فال دي بنياس.

- كنت أريد أن أحدثك عن لورينصو.

- هل حدث له شيء؟

- لا، لا بالعكس. إنه فتى رائع. بإمكانه أن يكون الأول في قسمه. لكن خجله...

وشرع في عرض مطول حول تعلم الحياة، وعن الشجاعة اللازمة لكي يكون الأفضل، الأفضل بين أقرانه(*)، الأفضل في عيني الرب. ربما غياب الأب...

صمت إلينا فسح المجال أمام ثرثرة رجل الدين الذي تكلم عن التضحية التي يعنيها التعليم، وعن الرضا الذي كان يمنحه، وعن ضرورة الانتباه إلى المتفوقين لإمدادهم بالطاقة الضرورية ليصلوا إلى مرتبة الزعامة في القضايا الكبرى.

- أنا أستطيع أن أمكنه من الالتحاق بالمدرسة الإكليريكية.

- لم تستطع إلينا أن تخفي ابتسامة.

- ولكنه مازال طفلا!

- علينا أن نوجه، أن نوجه، إلينا، ذلك هو واجبنا وما هو منتظر منا. هذا لا يلزمه بشيء. سيتلقى تكوينا رفيعا وسيتهيأ للمستقبل، وإذا كان لورينصو يرغب في ذلك، لا شيء يجبره على أن ينتهي منشدا في القداس. انظري إليّ، لقد قضيت اثنتى عشرة سنة في المدرسة الإكليريكية وأظن أني لم أعد أرغب في أن أصبح راهبا...

- أو لست راهبا؟

- لا يا امرأة! أنا فقط شماس، خادم الكنيسة، ولكني في يوم من الأيام، سألتقي بمن سأكون معها أسرة...

ربما ليبدد التعبير عن المفاجأة الذي علا وجهها، سأل عن المرحاض فأشارت له إلينا أين يوجد واستغلت غيابه لتتأكد

مـن أنه ليس هناك أية آثار لوجـود ريكاردو بالمنزل. بالتدريج تم التعـود علـى إزالـة أي أثر لحضـوره، من التبغ الـذي تخلى عنه لتجنـب تفسـيرات كانـت تثار فـي مكاتـب بطاقة التمويـن، إلى الدفاتر المخطوطة التي كان زوجها يستعملها لترجماته الأدبية، مـرورا بالثيـاب التـي لم تكن تعلـق قط ويتم تجفيفهـا بالمكواة، كانت حياة ريكاردو قد أصبحت مثل الهواء: كان موجودا لكنه لم يكن يحتل حيزا في الفضاء.

عندما خرج الراهب سـالفادور من الحمام، كانت بيده شـفرة الحلاقة التي يسـتعملها ريكاردو. النظرة البذيئة للشماس وهي تتأرجـح بـين الشـفرة وعينـي إلينا، وبـين عيني إلينا والشـفرة، تحولـت إلـى اسـتنطاق صامت حيـث كانت تتزاحم كل الأسـئلة وتتدافع كل الأجوبة.

- وهذه؟

- إنها شفرة حلاقة.

- هذا ما أراه. لن تقولي لي إن لورينصو قد بدأ يحلق ذقنه.

انتهـى تـردد إلينا إلـى قهقهة كانـت تريد خنقها بـين يديها واختلط الغضب الذي كان ينعكس على وجهها باحمرار خجل.

- آه، أيهـا الراهـب، كـم هو عظيـم جهلك بعالم النسـاء! ألم يخبرك أحد أننا نحلق سيقاننا لما يقترب فصل الصيف؟

ولا هي نفسـها تمكنت من أن تفسـر من أين استقت الطاقة اللازمة لتغمز بعين وتبتسم في الآن نفسه.

- إن ذلك أحد أسرار دلالنا

- أنت تحلقين ساقيك؟

- بالطبع ! كل النساء تقريبا يفعلن ذلك.

كأنها تريد أن تأتي بحجة تؤكد براءتها رفعت تنورتها حتى الركبتين لتريه أن ما كانت تقوله صحيح.

حينذاك تقدم الراهب سالفادور نحو إلينا، قابضا على شفرة الحلاقة في يد، وهو ينظر بتركيز إلى الساقين اللتين كانت التنورة المرفوعة تسمح برؤيتهما، وانحنى نحوها، كأنه يريد إنقاذ جرو متخلى عنه، وأحاط بيده الأخرى ربلة ساقها بوداعة.

اللمسة اللزجة لتلك اليد المبللة، وجه ذلك الراهب وهو يداعب بخشوع ربلة ساقها، جلدها المقشعر من أثر التقزز، خشيتها من أن تصرخ، عجزها من أن تدافع عن نفسها وغضبها، كل هذا جعل إلينا تلعن جاذبيتها.

بمحاذاة عالمي، كانت هناك قطعة أرضية تحولت إلى مطرحة نفايات. كانت تقع إلى جانب قاعة سينما الجزائر ومنها كان يمكن سماع الموسيقى التصويرية للأفلام المعروضة عبر أبواب من الزنك تؤدي إلى الخلاء. لا أدري لماذا ارتبط في ذاكرتي ذلك الفضاء القفر باكتشاف الممنوع.

قرب بوابة منزلي، كان هنالك دكان فحم مفتوح دائما لرجل من منطقة أستوريا، ضخم الجثة وبالغ الطيبوبة بأسنان سليمة وناصعة تلمع في وجهه المتسخ على الدوام بالفحم. كان اسمه صفيرينو لاغو وأتذكره وهو يحرك من دون توقف أكياسا من سقاط الفحم والشظايا وكربون شجرة البلوط. كانت زوجته بلانكا تبدو في الحقيقة كأنها أرملة. كانت تلبس دوما لباس العزاء وتلتزم الصمت، وكانت حركة دائمة دالة على الألم تجعل

الزبائــن يقدمــون لها العزاء وإن لم يكــن أحد يعرف من هو آخر المتوفين في عائلتها.

كان للفحامين ولدان، لويس شاب بمعرفة يعتد بها بخصوص أشياء العالم - كان لا يتردد في أن يحكم على امرأة تدخن بأنها مومــس- والآخــر لا أتذكــر اســمه (خــوان؟) كانت له قــدرة على الغضب لا يمكنني أن أنساها. كانت له أسنان أبيه نفسها مع بعد الكبر مما كان يجعلها تطل، ولو كان فمه مغلقا، من بين شفتين لحيمتــين، مرتخيتــين ومبللتين. حســنا، ابن الفحام هذا، ســبع أو ثمانــي ســنوات أكبر منا، كان يروق لــه أن يأخذنا إلى القطعة الأرضية الخلاء لننصت إلى الأشرطة الصوتية للأفلام المصنفة ضمــن الدرجة الرابعة، أي الأفلام بالغة الخطورة. أتذكر أنه كان هنالــك تصنيف وضعته الســلطات الكنســية لــم أتمكن قط من فهمــه: الأفــلام المــأذون عرضها، وتلــك التي تعرض بشــكل نادر، أفــلام الدرجة الثالثة، أفلام الدرجة الثالثة مع تحفظات، وأفلام الدرجة الرابعة.

لا أحــد منا كان يفهم مرتكزات هذا التصنيف، لكنه كان عالما لا يحتاج إلى تفسيرات. في شبابيك الدخول، مع التذاكر، كانت تبــاع بفلــس واحــد أوراق مقواة مطبــوع عليها شــعارات مرتبطة بالنبــلاء كنا نســميها رموزا. كانت عليها ســكة على شــكل مثلث في الجزء الأعلى لتعلق بعروة طية صدر الســترة وعلى الواجهة الأخرى يمكن قراءة جملة تقول إن ثمن هذا الشعار هو مساهمة طوعيــة فــي إعادة بنــاء الوطن. لم نكن نفهم مــا يعنيه كل ذلك ولكــن بمــا أن اللغة كلها كانت عبارة عــن غلو، فالحرب الصليبية

معناها الحرب والحمر هم الشياطين، والوطني كان مرادفا للمنتصر، وكان من الطبيعي أن تكون كلمة «طوعي» تعني «إجباري» بدليل أن الحارس لن يسمح لك بالدخول إذا لم يكن الشعار بارزا على تذكرة الدخول.

لم نكن نذهب إلى السينما إلا لماما، غير أننا بفعل السطوة الجسدية لابن الفحام، كنا نظل مرابطين إلى جانب أبواب الزنك التي كانت تستعمل لتهوية بهو الأرائك.

كنا ننصت بخشوع إلى تلك الحوارات التي لا ندرك لها معنى، وإلى الموسيقى التي كانت تغلف تلك الأصوات من دون أن نفهم أي شيء على الإطلاق، لكن ابن الفحام الذي لا أتذكر اسمه، كان يقفز فجأة وهو يضحك بعصبية ويقوم بحركات قد أصفها اليوم بالبذيئة ولكنها كانت تبدو لي حينذاك مجرد هلوسات.

بواسطته، وصلتني التصورات الأولى عن شيء كان عليّ أن أخفيه عن أبوي. كانت الأسرار تربطني بالناس كما تربط الجذور الأشجار بالأرض. لم أكن أعرف ما الذي كان بالضبط يتشكل منه سري، غير أنه في الوقت الذي كان أطفال آخرون يؤمنون بالعذراء أو بفرانكو أو بالبابا أو بالوطن، كنت أنا أومن بأسراري. كان ينتابني شعور بأني في الطريق إلى أن أصبح حكيما. بدأت أفهم معاني جمل مكتوبة في مراحيض المدرسة ومغزى بعض الحركات التي تعكسها ملصقات قاعات السينما، غير أنه وفي الوقت نفسه تطرق ذهني إلى أفكار عن العلاقة بين أبي وأمي حينما أكون غائبا. فهو كان يترك اللحية تنبت لتحلقها له في الأيام التي يشعلان فيها الموقد - فقط في تلك الأيام - فيزداد

بعدها شيبا، وتصاب أمي بهزال بفعل حزن لزج وقاتم، كل ذلك كان يبدو لي بمنزلة مؤشرات على أن أمرا مشؤوما يجري في بيتي. في هذه اللخبطة من التوجيهات الأخلاقية، كان الجسد منفيا، والأحاسيس التي نتلقاها عبره تعتبر جيدة إذا ما كانت ثمرة الألم، أو أنها تولد متعة ومن ثم فهي رديئة. ذلك أن الصحة كانت مرتبطة بالتضحية في حين أن المرض سببته دوما ترضية الغرائز. كان أمر ما يتم إخفاؤه عنا نحن الأطفال، فما كنا نعرف ما الذي يتعين أن نفعله بأجسادنا.

ولو أن النوم كان يغلبني في النهاية، فإني كنت أحيانا أتظاهر بالنوم وأرهف السمع لأعرف متى يمارس أبواي العلاقة، فقد كان من الواضح أنهما يفعلان شيئا ما حتى يصلا إلى هذه الدرجة من التدهور.

الآن أتذكر بحنين صمتهما.

كم من الصعب، أبانا، أن ينتصر المرء وتكون النتيجة أن يتحول من جديد إلى ضحية ! كل الرضا الذي استشعرته خلال ثلاث سنوات لكوني أنتمي إلى مجموعة المختارين لتوجيه الماء الجهنمي، كل المجد بدأ يتحول بالتدريج إلى إخفاق: إخفاق عند تغيير ثوبي الديني بلباس المحارب، إخفاق عند إخفاء أنفة الصليبي خلف عجرفة التربة، إخفاق لكوني وضعت قناعا تحت تمرد شهوة غير متحكم فيها، وفشل، في النهاية، لأني لم أفطن إلى أن ما كنت أريد إغراءه كان بصدد إغرائي.

هوسي كان بكل بساطة أن أنفرد للحظة بإلينا. وأخيرا، ذات يوم، وجدتها بمنزلها وكانت زيارتي ذات طابع رسمي لأطلب منها

أن تسلم ابنها إلى الكنيسة لتتعهده. تحدثنا في هذا الموضوع ويشكل فجائي، من دون أن أعرف كيف وقع ذلك، وجدت نفسي ساجدا قبالتها. لأسباب لا داعي للخوض فيها كانت إلينا قد تركت جانبا سذاجتها لتقف أمامي بحسية قصية وهدمت بحركة واحدة كل قناعاتي. يولد جمال الشر الشجي والمؤثر خشوعا أكثر من إثارته الخوف. وروحي شقت وحدها طريقا في ظلمة الليل(*). متخلى عنها في ظلمة ليلة كنت أنا أجهلها. لماذا جذبتني إلينا وصدتني في الوقت نفسه؟ جننت ولست متأكدا من أنني قد عدت إلى جادة الصواب.

إلينا، علينا أن نهرب. نعم سنذهب. يمكننا ترك الطفل مع أخواله بمينطريدا. إذا هربنا علينا أن نهرب ثلاثتنا. حسنا، لكن لا ينبغي أن ننتظر أكثر. نعم، لا يمكننا أن نعيش على هذا المنوال. لا، لا يمكن. لدينا بعض المدخرات. سيقرضني أخوالي بعض المال. لا، لا تطلب منهم شيئا، سيحاولون معرفة ما الذي يقع. طيب، لن أطلب منهم شيئا ولكن كيف سنتصرف؟ أسفار قصيرة جدا في الحافلات. لن يتجاوز السفر خمسين كيلومترا. هناك مراقبة أقل على الحافلات مقارنة مع القطارات. سنتأخر هكذا بشكل كبير. سنتأخر الوقت الذي يتعين أن نتأخر. المهم أن نهرب نحن الثلاثة. الثلاثة، حبيبتي. حبيبي. علينا أن نصل إلى المريا، هنالك مراكب صيد يساعدون على العبور بطريقة سرية إلى المغرب مقابل ثلاثمائة بسيطة. ومن أين سنأتي بهذا المبلغ؟ سأبيع كل ما يمكن بيعه. بما في ذلك سمكة المورانو التي تركها لك أبوك؟ أجل. لن نستطيع أخذ أي شيء معنا. لا شيء. كنت

دوما تقول إنه تميمتنا. تميمتنا ماتت. إلينا، حبي أنا، حبي.

في اليوم التالي، أخذ لورينصو رسالة موجهة إلى الراهب أركاديو يخبره فيها أنه سيضطر إلى التوقف عن حضور الدروس لأنه سيخضع لعملية جراحية تخص اللوزتين، وأن الأمر يتطلب معالجة قبلية وغيابه يمكن أن يمتد إلى أسبوعين. وصلت الرسالة إلى يدي الراهب سالفادور الذي سأل الطفل لماذا توقفت أمه عن مرافقته.

أمي أيضا تعاني من التهاب اللوزتين. وليس من المستبعد أن تموت.

للسبب نفسه الذي جعلني لم أسال قط لماذا يعيش أبي داخل دولاب، بما أن هذه الأشياء كانت تقع في الجهة الأخرى للمرآة، لم أسأل قط لماذا توقفت أمي عن مرافقتي إلى المدرسة. في البداية، كانت تتركني على بعد كتلتين من البنايات، وأنا كنت أتابع وحدي ما تبقى من الطريق. بعد ذلك، كانت ترافقني حتى تقاطع شارعي ألكالا وغويا، وفي النهاية لم تعد تخرج من المنزل حين يتم إرسالي إلى المدرسة.

كانت أمي قد تحدثت مع قاطعي تذاكر المترو ليأذنوا لي باجتياز الممر تحت - أرضي لتجنب تقاطع الطرق الوحيد الذي يشكل خطورة في مسيري، إذ برغم أن سيارات قليلة كانت تستعمل في تلك المرحلة، فقد كانت عدة طرق تؤدي إلى هناك ويتم عبورها بالتأكيد بسرعة أكبر نظرا إلى اتساعها. اكتشفت أن رائحة المترو تشبه رائحة الثياب المستعملة، وكانت له درجة حرارة النفس ومضاء بالضوء نفسه الذي يستعمل عادة في

الحجرة المعدة لكي يموت فيها المرضى.

أحيانا، حينما كنت أخرج باكرا، كنت أنزل إلى الأرصفة وأنتظر وصول القطار. بتلك الأنفاق كان يختبئ المصابون بالبرص، وكان صرير العجلات يبدو لي كأنه صرخاتهم وقد داسهم القطار. كانت أقواس الأفواه السوداء للأنفاق تجتذبني بقدر ما ترعبني لأن عالمي كان في مفترق طرق يمكن أن تصل إليه كل الشرور. الآن اعرف أنني كنت خائفا.

قلت المرات التي كان يخرج فيها أبي من دولابه. كان يظل مغلقا على نفسه حتى في حالة وجودنا وحدنا بالمنزل. وكان هذا يروق لي، إذ عند عودتي من المدرسة كنت أرتكن إلى جانبه وإلى جانب صمته. كنا نظل هكذا طوال ساعات إلى أن تقطع أمي السكون لتقدم لي قطعة خبز بالشوكولاتة. عن تلك الشوكولاتة الغامقة التي كانت كأنها مخلوطة بالرمل، بإمكاننا، نحن الأطفال الذين عايشنا تلك المرحلة، أن نكتب كتابا حول طبيعة الحيل التي كانت تجعلها قابلة للأكل: شرب الحليب عندما تكون في منتصف عملية المضغ، أن يبلل الخبز بالماء لكي يندمج غبار الشكولاتة ببعضه البعض، وما كان شائعا هو أن تقضمها شيئا فشيئا تاركا لها ما يكفي من الوقت لكي تتشبع بالريق.

ومع مرور الأيام، أصبح أبي يقضي وقتا أطول بالدولاب. ووصل الأمر إلى أننا كنا ،أنا وأمي، نأكل على مائدة المطبخ وهو يأكل في مخبئه. كان يمضغ بتقتير يدفع إلى اليأس كأنه كان يريد أن يتجنب الصوت الذي يحدثه خبز الجاودار عندما يتم مضغه. أصبح كل شيء ملطخاً بالحزن. أحسست بالذنب لأن

ذلك الدولاب بدأ يكتسب الرائحة السائدة بالمترو، وكان يبدو لي أن ذلك سينتهي بجذب المرضى بالبرص.

غير أن ذهابي إلى المدرسة وعودتي وحدي كانا يمنحاني لحظات تأثر مملوءة بالجرأة. كان بإمكاني التوقف عند واجهات المتاجر وأن أنظر بوقاحة إلى من هم أضعف مني. في الصباح، عند الذهاب، غالبا ما كنت أنزل إلى أرصفة المترو. وفي طريق العودة، كنت أتوقف لتأمل عجوز بحدبة كانت منهمكة في نسج جوارب إلى درجة أنه لولا الحركة المتواصلة ليدها لكنت أقسمت أنها قد قدت من خشب كالقديسين الموجودين بمذبح الكنيسة. عند العودة إلى المدرسة بعد الغداء، كنت أنزل مرة أخرى إلى جحيم المترو، وعند عودتي إلى المنزل في المساء، كنت أجرب طريقا يعبر بالضرورة ميدانا كنا جميعنا نطلق عليه اسم ساحة طوروس بييخا. هناك اكتشفت أن الراهب سالفادور كان يتبعني مرتديا لباسا مدنيا.

أبانا، جريح أنا في كبريائي وخجل في الآن نفسه من الهواجس التي كانت تشكك في اختياري الكهنوتي، طلبت إذنا من المدرسة لكي أغادر، بشكل مؤقت، الدير والتدريس، وبالإعانة التي قدمتها لي أسرتي استقررت بنزل كانت تسيره متعبدة عجوز بكنيسة سانتا خيما. حينها بدأت أشعر بأن حقا ما قد سلب مني. إيماني، اختياري، انتصاري، رجولتي، سلبت مني من طرف امرأة كانت ترفض أن تمنحني ما لم أتمكن قط من أن أطلبه منها. لكنها كانت تصدني انطلاقا من فشلها، انطلاقا من كفرها، انطلاقا من هزيمتها، والآن أعترف بذلك، انطلاقا من

جمالها. كيف لامرأة مهدمة من جراء كل هذه الخيبات، أن تظل غير مبالية تجاه اعترافاتي؟ كنت في حاجة إلى جواب.

بالتدريج، بدأ الأثاث المتبقي بمنزل آل ماصو في الاختفاء. أخذ بائع حدائد الشماعة المصنوعة من خشب القسطل، واشترت جارة لطيفة ومتواطئة كانت تعيش بالطابق الأخير آلة الخياطة، ودفع بائع للثياب البالية ثمنا بخسا مقابل ملاءات الكتان وفرشة سرير مخيطة باليد شكلت جزءا من مهر الجدة ولم تستعمل إلا في ليلة زفاف أم إلينا وليلة زفاف إلينا نفسها. كانت لاتزال بها رائحة العشق والنفتالين. فرشة شبيهة بهذه كانت قد أهديت لابنتهما عندما هربت مع ذلك المراهق قبيل نهاية الحرب. لم يرغب أحد في أخذ مائدة الأكل لحجمها الكبير، وكانت آلة الكتابة من نصيب محاسب بالشركة الإسبانية الألمانية التي كان ريكاردو ينجز لها ترجمات.

احتمال أن يمرض ريكاردو كان يجعل من الهروب أمرا مستعجلا. كان كل أصدقائه، من دون استثناء، قد ماتوا أو اضطروا إلى اللجوء إلى المنفى، ولن تكون لهم إمكانية أن يستضيفهم أحد إذا ما تحول ضعف زوجها إلى شيء أكثر خطورة.

كانا قد جمعا من المال ما يكفي تقريبا لبداية السفر، لكن ذلك المنزل الموحش كان يجعل ريكاردو يظل مشدودا عليه بالدولاب إلى درجة أنه ما كان يخرج حتى للنوم. وكان الطفل، الذي توقف عن الذهاب إلى المدرسة، يقضي الساعات الطوال قرب والده يقرأ له فقرات من لويس كارول ليسرق منه ابتسامة ويلزم الصمت

كلمـا توقف المصعد بالطابق الثالث. وجـاء يوم مملوء بالصمت والفراغات طرق فيه أحدهم الجرس، انتظر الجواب الذي لم يأت وألـحّ بضغطات مطولة على الجـرس أوقفت كل خفقان. الدقات علـى الباب والصرخات التي يسـمع صداها في السـلالم جعلت آليات الفرار تشـتغل من دون أن يكون هنالك فرار. أغلق ريكاردو على نفسـه باب الدولاب، ولجأ لورينصو إلى المطبخ ورتبت إلينا شعرها بيدها قبل أن تفتح الباب. ظل الراهب سالفادور، بلباسه غيـر الديني وغير المرتب، مضطربـا ومن دون حراك حين رأى أن إلينا قد فوجئت بضوضاء الزيارة.

- جئت لرؤية لورينصو. كيف حاله؟

الآن أنـا نـادم لأني لم أخبـر أبـوي بأن الراهب سـالفادور كان يراقبنـي، لـذا ففي اليوم الذي جاء فيه إلى المنزل على حين غرة لم يكونا مستعدين. وصل وهو يركل الباب ويصرخ. لم تجد أمي مناصا من أن تتركه يدخل. أتذكر أن المنزل كان كأنه من دون أثاث لأن غرباء أخذوه لأسباب لم أتجرأ على أن أسأل عنها ولكني كنت أربطها بفقرهم لا بفقرنا.

دخـل بحمـاس وهو ينـادي عليّ ولـم يتوقف عـن الصياح إلا عندمـا عثـر علـيّ بالمطبخ وأنـا أتظاهر بقـراءة «أليـس في بلاد العجائـب». سـألني عن حالـي، نزع الكتاب من بـين يدي، أرجعه إليّ في الحين، وطلب مني من دون أن ينتظر مني جوابا أن أتركه يتحدث بعض الوقت مع أمي.

خلال سنوات عدة، عذبني الإحساس بالذنب لأني استحضرت المرضـى بالبـرص لعلهم يأكلون هذا الممسـوس الـذي كان يؤذي

أمـــي، ولأني عندما جئت مرعوبا حينما ســمعت صرخاتها، رأيت كيـف أن أبــي بمظهــر بئيــس وعلامــات العجــز بادية عليــه، كان مرتميا على الراهب ســالفادور الــذي كان بدوره يحاول الاقتراب من أمي وهي تحمي وجهها باليدين لتجنب نفس ذلك الخنزير الواضع أنفه قرب عنقها. كان أبي قد خرج من الدولاب.

صحيح، ليس هناك عفو إن لم تتم إراقة الدم.(*) الآن أفهم المغزى العميق لرسالة العبريين هاته.

لقد كنت أداة لإقرار العدل. لهذا انحزت إلى جانب من قاموا بغــزو الإمبراطوريات، إلى جانب من أغلقوا فم الأســود.(*) إلى من هربوا على حافة السيف.(*) مثل خيديون، مثل باراك، مثل خيفطــي، ومثــل سامســون نفســه، كان بين يدي الســلاح لمعاقبة الذين، بمخالفتهم إرادة الرب، مازالوا يبحثون عن وطن.(*)

مدفوعــا بقوة ما كنت أعــرف أني أملكها، أبانــا، هاجمت هذا المعبد المحروس بعناية وهو نفســه الــذي كانت هذه المرأة تمنعني منــه. وكان جزء يســير من غضبــي كافيا لكي يخــرج من مخبئه المحــرض علــى الشــر، المدبــر الخســيس لــكل هــذه الشــبكة من الأكاذيب. كان زوج إلينا مختفيا في هذا المنزل.

وهــو يصرخ بشــيء غيــر مفهوم، ارتمــى ريكاردو علــى الراهب ســالفادور الذي اســتطاع أن يقف وهو يحمله على كتفه من دون أن يتبيــن مــا الــذي كان يحــدث. وعندما تمكن مــن أن يتخلص مــن ذلك الشــخص الطارئ الذي كان يتمســك بعنقه كأنه يريد خنقه، كانت صفعة منه كافية لكي يحلق من هاجمه بشــكل تام في الهواء. للحظات تغلبت الدهشــة على الغضب واســتدار رجل

الدين المرتدي لباسا عاديا نحو لورينصو الذي كان مذهولا أمام الباب، وسأله:

- من يكون هذا الرجل؟

أجاب الطفل:

- إنه أبي.

وركض إلى جانب إلينا التي شرعت في نوبة بكاء كأنها تحتضر وكانت تمشي على أربع لنجدة زوجها.

حينذاك بدأ الراهب سالفادور في الصراخ مطالبا بحضور الشرطة وهو يتراجع في الممر وذراعاه ممدودتان كأنه يريد قطع الطريق على جيش من الشياطين الراغبة في الهرب.

كان أبي يبدو مفرط الهزال مقارنة مع بدانة الراهب سالفادور. ركعت أمي أمام الجسم الممدود لأبي، وعندما اقتربت أخذتني في المزيج الأعزل الذي كانت تشكله وحافظت على أجسادنا مضغوطة كأنها كانت تريد حجبنا عن كل النظرات. عندما استرجع أبي ما يكفي من القوى ليعانقنا بدوره، شرعنا ثلاثتنا في بكاء أتذكره كأنه دام لسنوات. ولكن لم يكن هناك ما يكفي من سنوات للجميع. الدولاب، المخبأ، الأكاذيب، وكل حالات الصمت كانت قد وصلت إلى نهايتها.

تمكن ريكاردو من الوقوف بصعوبة لأن الضعف والألم وثقل زوجته كانت تحول دون ذلك، غير أنه عندما تبين له أنه يستطيع المشي، تقدم في الممر متعقبا ضجيج صرخات الشماس الذي كان قد فتح جميع النوافذ وهو يصرخ طالبا أن يتم إخبار الشرطة.

شيئا فشيئا بدأت تظهر وجوه خلف ستارات نوافذ الساحة، ولكن ولا واحدة فتحت خشية من أن ينتقل هذا الجنون إلى منازلهم.

شعرت بقوة يهوه بذراعي وغضب وطني في الحنجرة. ولكنني كنت أريد عدلا لا انتقاما. كان الشرير يريد تكسير كبريائي ويحث عن طريقة لإهانتي.

الآن لست متأكدا مما أتذكره، ذلك مع أني أرى أبي جالسا وهو يمد رجليه على إطار إحدى نوافذ الممر، مع أني أسمعه وهو يودعنا بصوت عذب وهادئ، فإن أمي تقول إنه رمى بنفسه في الفراغ من دون أن ينطق بكلمة.

انتحر، أبانا، لكي يتحمل ضميري مسؤولية التيه الأبدي لروحه، ليسلبني مجد إقراري للعدل.

تردد ريكاردو للحظة قبل أن يرمي بنفسه إلى تلك الساحة التي قضى وقتا طويلا يحمي نفسه منها. أخذ وقتا كافيا، وهو يتوجه نحو الفراغ، لينظر إلى إلينا وإلى ابنه مع ابتسامة حزينة تشبه الابتسامات التي تستعمل عادة في الوداعات الحزينة.

لا بد أنها على صواب لأنني لم أتمكن قط من نسيان وجه أبي وهو ينجذب نحو الفراغ، وجهه الباسم بينما الساحة تلتهم جسمه المهمل، وإن كان هذا مستحيلا لأن قامتي ما كانت تسمح لي حينذاك بأن أطل من تلك النافذة.

هنا ينتهي اعترافي، أبانا. لن أعود إلى الدير، وسأحاول أن أعيش تبعا للتعاليم المسيحية خارج الرهبنة. سامحني

إذا كانت رحمة الإله تجيز ذلك. سأكون عنصرا إضافيا ضمن القطيع، ذلك أنني مستقبلا سأعيش باعتباري عنصرا إضافيا بين أزهار عباد الشمس العمياء.

المترجم في سطور

عبد اللطيف البازي

- من مواليد تطوان - المغرب، ١٩٦١.
- حاصل على الإجازة الجامعية ودبلوم الدراسات المعمقة في الأدب الحديث من كلية الآداب - فاس.
- يعمــل مديرا للمركز الثقافي المغربي - الإســباني (الأندلس) بمرتيل، كما يرأس تحرير مجلة «عن الكتب».
- عضو اتحاد كتاب المغرب منذ العام ١٩٨٩.
- نشر العديد من الترجمات عن الإسبانية والفرنسية.
- له عدة كتب من إصدارات وزارة الثقافة بالمغرب.

المراجع في سطور

د. فهد راشد المطيري

● من مواليد الكويت ١٩٧٣.
● حاصل على شهادة الليسانس في اللغة الإسبانية وآدابها، جامعة سلمنكا، إسبانيا، ٢٠٠٠، وليسانس في الأدب العربي من الجامعة نفسها، ٢٠٠١.
● حاصل على شهادة الماجستير في علم اللغة العام، جامعة أسكس، بريطانيا، ٢٠٠٥، وعلم اللغة النظري، ٢٠٠٧. كما حصل على شهادة الدكتوراه في علم اللغة النظري، جامعة أسكس، بريطانيا، ٢٠١١.
● يعمل أستاذا مساعدا لعلم اللغة النظري، كلية التربية الأساسية - الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب.
● له العديد من المؤلفات باللغة الإنجليزية ومساهمات في مؤتمرات وندوات علمية.

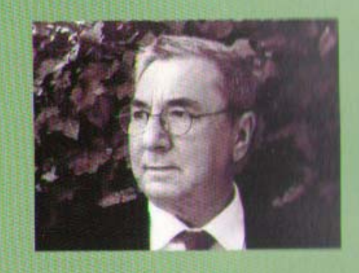
ما صدر من هذه السلسلة

ما صدر من هذه السلسلة

349	الأدغال والسهول العشبية تحكي القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «أنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن	تأليف: هنري برونل
354	يتبعها فن الهايكو مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ -2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساروريان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروجيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايفيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: بيجى شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبراافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب



ألبيرتو مينديس

• (1941 – 2004). هو ابن الشاعر والمترجم ڤوسيه مينديس هيريرا.

• قضى طفولته بمدريد ودرس أولا بروما، حيث انتقلت أسرته للعيش فيها لدواعٍ سياسية واقتصادية.

• حصل على الإجازة الجامعية في الفلسفة والآداب من جامعة كومبلوتينسي بمدريد.

• ناضل في صفوف الحزب الشيوعي الإسباني حتى العام 1982، وعمل في عدة دور نشر إسبانية وغير إسبانية.

• حصل العام 2002 على الجائزة الدولية للقصص «ماكس أوب» عن قصته «مخطوط عثر عليه في النسيان» وهي أحد فصول روايته «أزهار عباد الشمس العمياء» التي فازت بعد وفاته بالجائزة الوطنية للسرد، وجائزة النقد، وغيرهما.

أزهار عباد الشمس العمياء

في هذا العدد نقدم إلى القارئ العربي رواية للكاتب الإسباني ألبرتو مينديس، تحمل عنوان «أزهار عباد الشمس العمياء»، وتحتوي على أربعة فصول وأربع هزائم لشخصيات مختلفة. تضيء الرواية بشكل باهر مرحلة قاتمة من تاريخ إسبانيا، بأهوالها وفظاعاتها، حيث تعرض لدناءة البعض، ورفعة البعض الآخر أخلاقيا.

وتتداخل الوقائع والتفاصيل في الرواية لتقدم لنا صورة عن الحرب الأهلية في إسبانيا، وعن مرحلة الاستبداد الفرانكوي في أبعادها الإنسانية وفي تأثيرها في المصائر الفردية.

تعتبر الذاكرة والألم موضوعان مركزيان في الرواية، التي تتسم بالتفاصيل البسيطة أحيانا، والانفعالات العميقة والعنيفة، وصراعها المرير مع ماضيها وتجاربها أحيانا أخرى.

وعلى الرغم من الأجواء القاتمة التي تهيمن على الرواية، فإن هناك احتفاء ملحوظا بالإبداع والمبدعين، من خلال شخصيات من بينهم الشاعر، والمترجم، والرسام.

تعتبر «أزهار عباد الشمس العمياء» من الروايات الإسبانية الكلاسيكية التي حازت على إعجاب واهتمام النقاد، كما أنها حظيت باهتمام كبير وفازت بجوائز عدة.

رقم الإيداع: 2013/518
ردمك: 978-99906-0-401-6

